المنهج القرآنى للدعوة ومعرفة أحوال من تدعوهم

يتلخص منهج القرآن الكريم فى الدعوة إلى الله تعالى فى قول الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[1] وواضح من الآيه الكريمة أن أسلوب الدعوة يتشكل على حسب أحوال الناس الذين ندعوهم: فالخاصه: لهم الأسلوب المحكم والبرهان القاطع والدليل الساطع (بالحكمة).

والعامة: لهم العظة التى يمكن أن تصل إلى مداركهم وتستوعبها عقولهم.

والمعارضون: لهم المناظرة الهادئة الهادفة والمجادلة بالتى هى أحسن.

فلابد للدعاة من معرفة أحوال من يدعونهم وأنواعهم وما يحتاجون اليه من أسلوب ومن هداية وتوجيه لابد أن يكون الدعاة على بصيرة من الأمر فى كل شأن من الشئون حتى تكون دعوتهم ناجحة، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يخير الناس بأن الدعوة الى شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له هى سبيله يدعو الى الله سبحانه وتعالى بها على بصيرة وبرهان ويقين وإيمان، ويدعو كل من اتبعه إلى ما دعا إليه الرسول ﷺ، قال الله تعالى ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨ ﴾[2] كما دعا المنهج القرآنى إلى تتبع أحوال (السكان) وتدبر آيات الله تعالى فى جميع الأقطار والبلدان، ومعرفة احوال الأمم ودعا القرآن إلى السير والنظر فى الأرض لمعرفة تلك الأحوال. قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[3]. ودعا الإسلام إلى الرحلات والتقلب فى البلاد ليزداد الإنسان علما ومعرفة، وبحثا وفائدة وليعلم سنن الله تعالى فى الأمم السابقة والبلاد المختلفة وما حدث لأهلها وسكانها. قال الله تعالى:

(١) سورة النحل ١٢٥.
(٢) سورة يوسف ١٠٨.
(٣) سورة الحج ٤٦.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1] كما دعا القرآن الى معرفة أحوال سكان العالم القديم والحديث وما جرى للأمم السابقة والحضارات الماضية، وماذا كان عاقبة هؤلاء الناس قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾[2]

ووجه رسول الله ﷺ أمته إلى الرحلة فى طلب العلم والمعرفة ولقاء العلماء فى أى مكان أو وطن فى دنيا الله الواسعة فقال صلوات الله وسلامه عليه: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة)[3] وزيادة فى دقة المنهج الإسلامى فى تسلح الدعاة تيزاد المعرفة ليتمكنوا من مخاطبة السكان فى أى مكان من الأرض دعا إلى تعلم اللغات الآخرى فأمر رسول الله ﷺ كاتبه زيد بن ثابت أن يتعلم السريانية فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمرنى رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية وقال: (إنى والله ما آمن يهود على كتابى). قال زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (فوالله ما مر بى نصف شهر حتى تعلمته وجدت فيه فكنت أكتب إليهم واقرأ له كتبهم)[4] وهكذا نرى أن معرفة أحوال السكان ولغاتهم أمر ضرورى للدعاة يجب أن يضطلعوا به وأن يتسلحوا بأسلحته حتى يؤد واجبهم الإسلامى.

عالمية الإسلام تستوجب على الدعاة دعوة جميع سكان الدنيا:

لكى يقوم الدعاة برسالتهم على أكمل وجه، لابد أن يلموا بأنواع الثقافات والعلوم من حولهم، ليتمكنوا من معرفة أحوال العالم، والأقطار التى تحيط بهم، فإن الإسلام دين عالمى لاتقتصر دعوته على زمان دون زمان ولا على مكان دون مكان، وإنما هو دين عالمى

(١) سورة آل عمران ١٣٧، ١٣٨.
(٢) سورة غافر ٢١.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه البخارى.

للناس كافة وللعرب والعجم والإنس والجن. وقد استهدف الإسلام تعارف الناس بعضهم لبعض وجعل هذا التعارف هو الغاية من خلقهم شعوبا وقبائل، قال الله تعالى:- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1] ولقد كانت الرسالات السابقة لرسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، يختص كل رسول بدعوة قومه، فاذا جاء غيره إلى هؤلاء القوم نسخ اللاحق دعوة السابق، اللهم الا القدر المشترك بين الرسالات وهو عبادة الله وحده واجتناب ما دونه من الباطل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[2] ولما كانت الأمم السابقة تختلف أحوالهم وأوضاعهم فقد تغايرت الرسالات بتغاير الأحوال، وكان لكل أمه منهاج، كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[3] ووضح القرآن الكريم أن الرسل السابقين كان كل رسول منهم مرسلا إلى قومة خاصة، فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾[4]. وقال سبحانه فى شأن هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[5] وقال الله تعالى فى شأن صالح: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾[6] وقال تعالى فى شأن شعيب: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[7] وقال سبحانه فى شأن عيسى عليهم جميعا صلوات الله وسلامه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[8] وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد وضح أن كل رسول من الرسل السابقين كان يرسل إلى قومه

(١) سورة الحجرات ١٣.
(٢) سورة النحل ٣٦.
(٣) سورة المائدة ٤٨.
(٤) سورة هود ٢٥.
(٥) سورة هود ٥٠.
(٦) سورة هود ٦١.
(٧) سورة هود ٨٤.
(٨) سورة الصف ٦.

خاصة، حتى بلغت الإنسانية نضجها فجاءت الرسالة العامه الخالدة والرسول الخاتم الذى لا رسول بعده ولا نبى، فرسالته عامه لكل الأجناس والألوان، خالدة إلى قيام الساعة.

وكان لتلك الشريعة العامة الخالدة ما يكفل لها العموم والخلود حيث أكملها الله تعالى وأتمها، كما قال جل شأنه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1] وأكد القرآن الكريم عموم الرسالة وخلودها وأن رسول الله ﷺ مرسل إلى الناس كافة، فقال جل شأنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[3] كما أشار سبحانه إلى أن الكتاب الذى جاء به هذا الرسول الخاتم ﷺ له صفة العموم والخلود أيضا فقال: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[4] وإذا كان الإسلام دينا عالميا، وكانت هذه الأمه حاملة لهذا الدين، وقد نزل القرآن الكريم بلغتها العربية فما الواجب على الأمة الإسلامية إذن؟ لايمارى أحد ولا يختلف اثنان فى أن واجب هذه الأمه أن تحمل دعوة الإسلام إلى جميع من على ظهر الأرض وأن تبلغه إلى الناس كافة أن تبلغه إلى العالم بجميع أقطاره وأجناسه ولغاته... وإذا تقاعست عن دورها ورسالتها فى تبليغ الإسلام إلى كل القاطنين فى قارات العالم، فقد خانت الأمانة التى ائتمنها الله سبحانه وتعالى عليها. إن الاستعمار نجح فى نشر أباطليه، حين مكن لها بإقصاء لغة القرآن والسنة وهى اللغة العربية، وأهملها، فأصبحت بلاد مسلمة كثيرة، ومسلمون فى بلاد غير عربية لا يتكلمون إلا اللغتين: الإنجليزية، والفرنسية، ولم يستطع المسلمون فى تلك البلاد أن يقفوا على تعاليم الإسلام الإ عن طريق ما يكتبه لهم المستشرقون من إفك وباطل. وواجبنا نحن العرب الذين حملنا كتاب الله ودعوة الإسلام ونزل القرآن بلغتنا واجبنا أن نحمل الإسلام بتعاليمه الصحيحة إلى كل

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) سورة سبأ ٢٨.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٤) سورة القلم ٥٢.

قـارات العـالم وجميع بلاد الله على ظهـر الأرض، حتى نحقق خبرتنـا التى وصفنا الله تعـالى بها فـى قوله جل شـأنه :- ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1].

❑❑❑

(١) سورة آل عمران ١١٠.

دعوة الإسلام إلى الوحدة

الوحدة :

هى اتحاد الدول أو البلاد والأفراد والجماعات فى سائر أمور حياتهم ومعاشهم، وسيرتهم، وغايتهم، وبموجب هذه الوحدة يصبح الجميع شيئا واحدا، أو أمة واحدة . يقال اتحد البلدان أى صارا بلدا واحدا، واتحدت الأشياء، صارت شيئا واحدا. ويقال: وحد المتعدد: أى صيره واحدا، واتحد به: أى صار معه شيئا واحدا. ولأهمية وحدة الأمة وا جتماعها، رد الله سبحانه أنسابنا جميعا منذ وجدت الخليقة وإلى يوم يبعثون إلى أصل واحد، فكلنا لآدم عليه السلام، وللبشرية جمعاء أب واحد وأم واحدة، خلقنا منهما «من ذكر وأنثى» قال جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[(١)] ووضح سبحانه أن الأمة واحدة، وأن الرب واحد فقال جل شأنه: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾[(٢)] ووضح رب العزة سبحانه وتعالى أن وحدة الأمة تستوجب عليها ألا يتفرقوا فى الدين وألا يختلفوا، فقال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾[(٣)] والذين يفرقون دينهم ويختلفون شيعا يعادى بعضهم بعضا بعيدون عن الدين وعن الحق وعن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[(٤)] والمتفرقون فريسة لأعدائهم يتغلبون عليهم

(١) سورة الحجرات ١٣.
(٢) سورة المؤمنون ٥٢.
(٣) سورة الشورى ١٣.
(٤) سورة الأنعام ١٥٩.

بسهوله وتتداعى عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، فيعتدى عليهم فى كل وطن، ويقاتلون فى كل مكان ويضعون فرقة بعد أخرى وجماعة بعد جماعة، كما يكونون فى فرقتهم فريسة للشيطان ولكل عدوان، عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ «الشيطان يهم بالواحد والاثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم»[1].

ولخطر الفرقة وعدم الوحدة حذر الرسول صلوات الله وسلامه عليه منها أشد التحذير وبين أن الذى يخرج عن الطاعة ويفارق الجماعة يموت على ما كان عليه أهل الجاهلية من البعد عن الدين والوحدة فقال ﷺ: «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية»[2].

وواضح أن قوة المؤمنين فى وحدتهم وأن ضعفهم فى تفرقهم قال: ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[3].

ومن أجل أن يكون المؤمنون قوة واحدة، لابد أن يتألفوا ويتعارفوا وأن تسرى روح التعاطف والتراحم فيما بينهم ليصبحوا كالجسد الواحد فيشعر كل منهم بشعور الآخر يفرح لفرحه ويحزن لحزنه ويشاركه فى السراء والضراء، ويخف لنجدته، ويبادر بمساعدته مصدقا لقول الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى له منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى»[4].

إن وحدة أمتنا واجبه وضرورية لمواجهة التحديات والتكتلات والأخطار التى تحدق بالأمة من كل جانب، ولو نظرنا إلى ماتملكه أمتنا الإسلامية والعربية من الثورة البشرية والمعدنية والبترول، والعقول والحضارة والعلم، والزراعة إلى غير ذلك من أسباب القوة والمنعة، لو نظرنا إلى ماتملكه أمتنا من هذا كله لكنا على يقين بأننا حين نتوحد

(١) رواه مالك.
(٢) رواه البخارى.
(٣) رواه البخارى.
(٤) رواه البخارى.

ونتجمع نصبح أكبر قوة مؤثرة فى العالم كله .. ومن أجل هذا أدرك أعداء أمتنا، سر قوتنا، فراحوا يعملون على نشر مبدئهم : «فرق تسد» فكانت الحدود المصطنعه وكانت أساليب التفرقة المتعددة فى الثقافة وفى نشر مبادئ الاختلاف بين الأمة لإحداث شروخ بين فصائل الشباب المسلم، وبينهم وبين الدعاة والأنظمة، ومحاولة تضخيم بعض الاجتهادات والخلافات الفقهية . وإلى جانب هذا سعوا جاهدين فى فصل الأمة عن دينها ودستورها لأنه يوحدها فقال أحدهم فى بعض المؤتمرات لا قرار لنا ما دام المصحف فى أيدى المسلمين.

الوحدة فى الإسلام

أهمية الوحدة : أن الوحدة أساس كل خير فى دنيا الناس وآخرتهم . وأن الفرقة أخطر الأفات التى تقضى على سعادة الناس، وترديهم فى مهاوى التهلكة، وتجرهم إلى وحل المعصية وتظل تفرقهم شيعا حتى تجعلهم ينفصلون تماما عن الدين، وفى هذا المعنى يقول الحق تبارك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾(١) بل إن العلم نفسه حين لا يقوم على أساس الإخلاص، يؤدى بأصحابه إلى الخلاف واشتجار الأفكار ذلك لأن آفة العناد والتعصب، والبغضاء والحسد كل ذلك يستبد بالفكر الإنسانى، لهذا جاء القرآن الكريم فى دعوته إلى الوحدة يحرر عقيدتها وفكرها من آفة البغى والحسد، ويرسى فى النفوس دعائم التوحيد والتمسك بالشريعة القوية التى جاء بها الرسول ﷺ فقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(٢) أساس الوحدة: بين سبحانه أن أساس هذه الوحدة التى يدعو إليها الإسلام هى الدين الإسلامى والاعتصام به وبكتابه الذى هو سبب النجاة، وحذر سبحانه من التفرقة لما لها من الأخطار المحدقة والأضرار الفادحة،

(١) سورة الأنعام ١٥٩.

(٢) سورة آل عمران ١٩.

وذكــر الله عبــاده من هذه الأمة، بما كان عليــه الأوس والخزرج قديما، فقيل إنهما كانــا أخوين لأبوين فوقع بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب بينهم مائة وعشـرين سنة حتى جاء الإسلام فأطفأ نارها وأخمد شرها، وجمعهم بالإسلام وألف بينهم برسوله صلوات الله وســلامه عليه.. وتدعيما لأصول تلك الوحدة وترسيخا لأساسها، يكلف الله تعــالى هذه الأمــة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إنتصــارا للدين، وإقامة لوحدته، ودفعا لآفات الشـر والفســاد التى قد تثار حول حماه، أو ترتكب فى الوطن الإســلامى ويضــرب لنــا القرآن الكريم المثل بمن قبلنا حين اختلفــوا بعد أن جاءتهم البينات فكان لهم الوعيد الشديد. عن تلك الملامح كلها تحدث القرآن الكريم حديثا شافيا، هاديا للتى هى أقوم. فقــال الله تعــالى ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[1] وقــد وجــه الرســول ﷺ أمته إلى أساس الوحدة: وهو الأعتصام بحبل الله، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا: فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شـيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم.. ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة الســؤال وإضاعة المال»[2] ولا شك أن حبل الله وهو دينه وكتابــه يجمــع معانى العهد بين الخلق وخالقهم والأمان لمن تمســك به، والصلة بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، فمن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ

(١) سورة آل عمران ١٠٣، ١٠٥.

(٢) رواه مسلم.

إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] وقد جاء فى الحديث السابق التحذير من التفرقة، فى قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ بعد الأمر بالاعتصام، لبيان أن من اعتصم بحبل الله فهو بعيد عن التنازع بعيد عن التفرقة، أما الإعراض عنه، والتماس الاعتصام بغيره ففيه الضلال ".. ومن التمس الهدى فى غيره أضله الله " وقد أشار القرآن الكريم إلى تأكيد هذا المعنى فى قوله تعالى ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[2] وقال تعالى ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرًاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾[3].

وهكذا نجد الأيات، بعد أن بين سبحانه أن الدين واحد والشريعة واحدة وأن الأمة واحدة تتفق على الإيمان والتوحيد فى العبادة، وأشار بعد هذا إلى حال بعض الأمم فى مخالفة عصا الطاعة، فتقطعوا أحزابا مختلفة..

وفيما رواه البخارى، قال ﷺ: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات * مات ميتة جاهلية»

وفى موطن آخر، أعلن الرسول ﷺ بعده عن مخالف الجماعة الذى لم يف لها بعهد، وراح يفرق بين الصفوف، ويضرب البر والفاجر.. فقال ﷺ: «من خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها، لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفى بعهد ذى عهدها فليس منى ولست منه»[4] ويقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[5].

العبادات تطبيق عملى للوحدة: والإسلام فى حرصه الشديد على تقوية أركان

(١) سورة البقرة ٢٥٧.
(٢) سورة الأنفال ٤٦.
(٣) سورة المؤمنون ٥٢ – ٥٣.
(٤) رواه مسلم.
(٥) سورة النساء ١١٥.

الأمه الإسلاميه وتضافر قواها جعل لعبادتها زيادة فى الفضل والأجر إذا كانت فى جماعة تعويدا لهم على الاتحاد، وغرسا لأصوله وروحه فيهم فجعل لصلاة الجماعة من الثواب والفضل ما يزيد على صلاة المنفرد، وصلاة الجماعة إذ شرعها الإسلام جعل فيها روح الوحدة اليومية خمس مرات كل يوم وكما هو الشأن فى صلاة العيديين من كل عام وفيهما يكون الإجتماع أكبر، كما شرع أوسع اجتماع ممكن وأكبر جماعة يمكن أن تضم أكبر عدد من المسلمين من مختلف الأقطار الإسلامية وعلى شتى الألوان والأجناس وذلك فى فريضة الحج إلى بيت الله الحرام وفى عبادة الصيام والزكاة تطبيق عملى للوحدة .

نهاية الفرقة: هذا ومن خالف الرسول ﷺ فيما جاء به، واتبع غير ما عليه المؤمنون من العقيدة والعمل، يدعه الله ويتخلى عنه ويوليه ما تولى ذلك فى دنياه وأما فى الآخرة فيصليه جهنم وساءت مصيرا، وفى هذا المعنى يقول تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾(١) والمتصفح لتاريخ الأمم والشعوب يرى أنه ما أستطاعت أمة من أهل السلب والنهب والسطو والظلم أن تتمكن من غيرها إلا بعد أن تمكنت من تمزيق وحدة غيرها، ومحاولة بث الفرقة والخلاف وتلك هى سياسة الاستعمار، وما الغزو الصليبى أو الصهيونية عنا ببعيد فقد كانت أسلحة التفرقة أقوى من أسلحة الميدان، وكانت عناصر التفرقة أضر من ضربات السنان. لهذا كله فنحن نهيب بالمسلمين والعرب فى شتى الأقطار الإسلامية والعربية أن يجمعوا أمرهم وأن يلتقوا على كلمة سواء وأن يدركوا قيمة الهدى النبوى فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم «يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ فى النار» فإلى وحدة قوية متماسكة البنيان، وصف واحد كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وإلى تعارف وتآلف تتضافر فيه القوى أمما وشعوبا كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾(٢).

---

(١) سورة النساء ١١٥.

(٢) سورة الحجرات ١٣.

واجب المسلمين فى توحيد موقفهم تجاه التحديات المعاصرة

لقد وحد الله الأمة الإسلامية، بتلك العقيدة التى تدعوها إلى عبادة إله واحد لا شريك له، وبتلك العبادات التى تتمثل فيها وحدة صفوفها فى الصلاة خمس مرات كل يوم.

وفى الزكاة التى تتوحد فيها مشاعر المسلمين فى تعاونهم مع إخوانهم المحتاجين، بما شرعه الله تعالى فى أموالهم من حق معلوم للسائل والمحروم.

وفى الصيام الذى يوحدهم حيث يمتنعون عن الطعام والشراب فى وقت واحد ويطعمون ويشربون عند المغرب فى وقت واحد ..

وفى الحج إلى بيت الله الحرام الذى يتلاقى فيه الناس من كل فج عميق ويجتمعون بزى واحد وفى وقت واحد يلبون إلها واحدا لاشريك له، ويتدارسون فى مؤتمر الحج العالمى قضاياهم ومشاكلهم فجاءت كل تشريعات الإسلام توحد بين جميع المسلمين أفرادا وجماعات وأمما وشعوبا، وجعل الله الغاية من خلقهم من ذكر وأنثى، ومن جعلهم شعوبا وقبائل أن يتعارفوا، قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾[1].. وقال سبحانه آمرا بالوحدة: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[2]. ولنلق الضوء – أولا – على حقائق الإسلام فى منهجه الربانى حتى نرى ونوقن أنها حقائق وتشريعات، توحد ولا تفرق...

حقائق التشريع الإسلامى توحد ولا تفرق

موقف الإسلام من الاجتهادات الصحيحة :

إن الإسلام هو دين العلم والمعرفة، يدعو أتباعه إلى المزيد من العلم والثقافة، بل أمر الله تعالى صفوة خلقة، وخاتم رسله بأن يطلب منه المزيد من العلم، وأن يدعو بذلك:

---

(١) سورة الحجرات ١٣.

(٢) سورة آل عمران ١٠٣.

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1] وهو الدين العالمى الذى جاء بالدعوة العامة فى الزمان وفى المكان، وبعث بدستوره السماوى الخالد خاتم رسل الله ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولعموم الدعوة، وخلودها إلى أن يقوم الناس لرب العالمين اتسم دستورها السماوى وهو القرآن الكريم بالعموم والخلود فنزل تبيانا لكل شيء: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾[2].

ولعموم الدعوة وخلودها تكفل الله بحفظ دستورها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3] فحفظه رب العزة سبحانه وتعالى فى الصدور وفى السطور.

ولعموم الدعوة وخلودها أرسل لها رسولا هو رحمة الله للعالمين لم تختص دعوته بقوم دون قوم ولا بزمان دون زمان كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

ولعموم الدعوة وخلودها صان الله تشريعها السماوى من أى دخيل أو مدسوس، فكما تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم تكفل سبحانه بحفظ كل حقيقى وصحيح من الحديث النبوى، ليكون بيانا للقرآن: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[4].

فقيض الله لحفظ السنة النبوية المطهرة رجالا أمناء عرفوا بالعدالة وبالضبط والورع وقمه الذكاء فصانوا السنة النبوية المطهرة من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ....

ولعموم الدعوة وخلودها كانت حقائق التشريع فيها توحد ولا تفرق وتدعوا إلى التمسك بالوحى الإلهى من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وفى دائرة هذا الوحى المعصوم كان الاجتهاد فى الأمور التى لم يرد فيها نص وكان التفكير الإسلامى من أهل العلم المتحصصين... ولعموم الدعوة وخلودها كان منهاجها الربانى يتسم بالحكمة

(١) سورة طه ١١٤.
(٢) سورة الأنعام ٩٠.
(٣) سورة الحجر ٩.
(٤) سورة القيامة ١٧، ١٨.

والموعظة الحسـنة والمجادلة بالتى هى أحسـن، فلم ينتشر بالقوة ولا بالسيف فقد قال الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾(1) وقال سبحانه ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٍ ﴾(2) وقال جل شـأنه ﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾..... وحين يكون المجتهدون - فى أمور الدين - أهلا لهذا الاجتهاد وتتعدد الأراء فإن الإسـلام لا يحجر على رأى، ولا يصادر فكرا، ما دام صحيحا وما دام صاحبه من أهل الإجتهاد، فقد كان رسـول الله ﷺ يقر الاجتهاد وتعدد الآراء، تأكيدا لسماحة الإسلام ويسره، وما كان يعنف أحدا، فقد روى أن النبـى ﷺ قـال - يوم الأحزاب: «لايصلين أحد العصـر إلا فى بنى قريظة»، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيها وقال بعضهم: بل نصلى لم يرد منا ذلك فذكر ذلك للنبى ﷺ، فلم يعنف أحدا منهم.

ومـن أمثلـة إقرار تعدد الآراء حين تكون صحيحة: نبـأ الرجلين اللذين تيمما صعيدا طيبـا، وأثناء صلاتهما وجد الماء، فأعاد أحدهما الوضـوء والصلاة، ولم يعد الثانى، فقال النبى صلى الله عليه وسـلم للذى لم يعد «أصبت السنة» وقال لمن أعاد «لك الأجر مرتين». بل كان ينفرد أحيانا بعض الصحابة باجتهاد فى مسألة ما من المسائل أو حال من الأحوال التى تعرض له، وقد يرى البعض اجتهاد هذا الصحابى غريبا أو مستبعدا، ولكن رسول الله صلـوات الله وسـلامه عليه حين يرد إليه الأمر يبين لهم الحـق فيه، فحين يرى فى هذا التصرف أو الاجتهاد وجها من وجوه سماحة الإسلام يقره ولا يرفضه، ولا يعنف صاحبه، ولا يتشـدد، يقـول عمرو بن العـاص رضي الله عنه: أحتلمت فى ليلة بـاردة، فى غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابى الصبح، فذكروا ذلك للنبى ﷺ، فقال يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذى حدث، ويقول

---

(١) سورة البقرة ٢٥٦.

(٢) سورة ق: ٤٥.

الله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[1] «فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شـيئا»[2] وهكذا نرى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يقر الإجتهاد الصحيح ويقبـل تعـدد الآراء ما دام ذلك فى إطار الحق والصواب، وما دام ذلك فيما يرد فيه نص، ولم يصـادم أيـة من كتاب الله تعالى، ولا حديثا صحيحا من أحاديث رسـول الله صلوات الله وسـلامه عليه.... بل إن علماء الحديث يعدون إقرار الرسول ﷺ لعمل أحد الصحابه نوعا من أنواع السنة النبوية، والحديث الشريف، لأنهم يعرفونه بأنه ما أضيف إلى رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة. وعبر عصور الإسلام الزاهرة، ما كان سلف هذه الأمة – حين تتعدد آراؤهم – يلزم أحدهم الآخر برأيه، ولا يكره أحد على شىء، فقد روى أن الإمام أبا حنيفة النعمان رحمه الله تعالى أنه قال: هذا الذى نحن فيه رأى لا نجبر أحدا عليه، ولا نقول: يجب على أحد قبوله كراهية، فمن كان عنده شىء أحسن منه فليأت به.

موقف الإسلام من الآراء التى لا تكون صحيحة

وأما موقف الإسلام من الآراء التى لا تكون صحيحة، فإنه ينكرها ولا يقرها بل لا يقر – ابتداء – أحد على القيام بالاجتهاد أو الإفتاء أو الرأى فى دين الله إلا إذا كان مزودا بعلوم الاجتهاد والإفتاء من التفسـير وعلوم القرآن والقراءات وأسـباب النزول والحديث وأسباب الورود والناسـخ والمنسـوخ والفقه والنحو والصرف وغير ذلك من العلوم.... ويأمر الله تعالى من لا علم لهم أن يسألوا العلماء المتخصصين وأهل الذكر العارفين، فقال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3] وحذر الإسـلام من اتباع آراء من لا علم لهم، لأنهم يضلون ويضلون كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الصدور ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤوسـا جهالا فسـئلوا فأفتوا بغير

(١) سورة النساء ٢٩.

(٢) رواه أبو داود والحاكم.

(٣) سورة النحل ٤٣.

علـم فضلـوا وأضلوا»[1].. وإن من لا علم له حين يفتى فى دين الله أحدا يضله ولا يهديه، ويعـرض مـن يفتيه إلى الهلاك، عن جابر رضي الله عنه قال: خرجنا فى سـفر، فأصاب رجلا منا حجر فى رأسـه، ثم احتلم فسـأل أصحابه: هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ فقالوا: مـا نجد لك رخصة، وأنت تقدر على الماء، فاغتسـل فمات.. فلما قدمنا على رسـول الله ﷺ، أخبر بذلك، فقال عليه الصلاة والسـلام: «قتلوه قتلهم الله ألا سـألوا إذا لم يعلموا؟ فإن شـفاء العى السـؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة، ثم يمسـح عليها ويغسل سائر جسد.» ففى قوله ﷺ: «قتلوه قتلهم الله» ما يفيد اعتبار الذين أفتـوه خطـأ فأوردوه موارد الموت بمثابة القتلة لأخيهم حـين أفتوه خطأ بغير علم... ومن ذلك أيضا ما رواه أسـامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية، فصبحنا الحرقات مـن جهينـة، فأدركت رجلا فقـال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع فى نفسـى من ذلك، فذكرته للنبى ﷺ، فقال رسـول الله ﷺ: آقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قلت: يا رسـول الله إنما قالها خوفا من السـلاح قال: أفلا شـققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟ فمازال يكررها حتى تمنيت أن لم أكن أسـلمت قبـل ذلك اليـوم. ومع الاختلاف فى الرأى، فإن الأمر لا يصل إلى حد أن يكفر أحد أحدا ولا أن يحكم أحد على المخطىء بالفسـق أو الابتداع، لأنه لا يمكن لأحد أن يدخل قلوب الناس، أو أن يسـيطر عليها، فلا يعلم ما فى القلوب إلا علام الغيوب، ولا يسـيطر عليها إلا الله سبحانه وتعالى الذى خلقها.

□□□

(١) رواه البخارى.

لا تعصب فى اجتهادات الأئمة

لقد كان لأئمتنا رحمهم الله تعالى جهودهم التى تذكر فتشكر فى مجال الاجتهاد وكانت لهــم آراؤهم المتعددة، والتى قد يختلف بعضهم مع الآخــر، ولكنهم مع هذا لم يتعصبوا، ولم يلزم أحدهم الآخر برأيه . فقد كانت هناك أسباب عديدة لإختلاف وجهات النظر من بينهــا : ألا يكون الحديث قد بلغ بعضهم، أو يكون بلغه ولكنه لم يثبت عنده، لأن أحد رجال الإسناد مجهول أو متهم أو سيء الحفظ، أو يعتقد ضعف الحديث بإجتهاد قد خالفه فيه غيره، أو يكون الحديث قد بلغه وثبت عنده ولكنه نسـيه . ومن أسـباب الاختلاف أيضــا، ما يرجع إلى بعــض القواعد الأصولية كأن يأخذ بعضهم مثــلا ببعض تلك القواعد الأصولية : (كالمصالح المرسـلة أو سـد الذرائع أو الاستحســان أو الاستصحاب أو العرف) ولا يأخــذ البعض بهذه القواعد... ومع اختلافهم فى بعض الأحكام، إلا أنهم لم يتعصبوا لآرائهم لأنها لم تكن اختلافات على الأصول بل فى الفروع، كاختلافهم فى قراءة البسملة وعدم قراءتها، وفى الجهر بها أو الإسرار، ولم يلزموا أحدا بآرائهم ولم يمنع اختلافهم هذا أن يصلى بعضهم خلف بعض.

فنرى الإمام الشــافعى رحمه الله تعالى، يصلى فى مسـجد الإمام أبى حنيفة قريبا من مقبرته، فلم يقنت فى صلاة الصبح، مع أن القنوت عند الإمام الشــافعى سـنة، فلما قيل له فى ذلك، أجاب قائلا: أخالفه وأنا فى حضرته ؟ وعندما أراد الخليفة المنصور أن يلزم الناس بالموطأ قال الإمام مالك: «يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا، فإن الناس قد سـبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ... فدع الناس وما اختار كل بلد منهم لأنفسهم».. فقال الخليفة: وفقك الله يا أبا عبد الله.

ومــن احتيــاط أئمتنا وتواضعهم ما روى عن الإمام مالك رحمه الله أنه سـئل عن ثمان وأربعين مسأله، فقال فى اثنتين وثلاثين منها: «لا أدرى».

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه «لا أدرى» «نصف العلم» فلا يصح لمن لم يؤت فقها فى الدين، واستعدادا فى الاجتهاد أن يتجرأ على القول فى دين الله بغير علم، فأجرأ الناس

علـى الفتـوى أجرؤهم على النار، وعلى عامة الناس ألا يسـألوا فى دين الله تعالى إلا مـن كان عالما متخصصا، كما قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهكذا نهج سـلفنا من أئمة المسـلمين منهج التثبت فى دين الله وعدم التعصب لرأى دون رأى أو اجتهاد دون اجتهاد، ما دام لم يصادم نصا من كتاب الله سبحانه وتعالى أو حديثا صحيحا من سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

دعوة الإسلام إلى توحيد موقف المسلمين تجاه التحديات المعاصرة

إن حقائق الإسلام وتشريعاته، توحد المسلمين، ولا تفرقهم وإن اجتهادات الأئمة وتعدد الآراء واختلافها - أحيانا - إنما كان فى الفروع لا فى الأصول.... ولم يمنع الاختلاف من وحدتهم وتضامنهم ولم يكن - يوما - مدعاة للتعصب لرأى دون الأخر...

ولما كان للتشـريع الإسـلامى هذا المنهج.... فإن من الطبيعى أن نقدر دعوته لتوحيد موقـف المسـلمين فى كل أمورهـم الدنيوية، وفـى كل خطاهم وحياتهـم، وخاصة تجاه التحديات المعاصرة التى يتعرضون لها.

لقـد وضح القرآن الكريم وحـدة هذه الأمـة ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾(1). وفى دعوة الإسلام لتوحيد موقف المسلمين تجاه التحديات يحذر القرآن الأمة الإسلامية من أهم تلك التحديات التى يحاول أعداؤها أن ينشروها بينهم وهى التى تتمثل فى:-

الخلافات بين المسلمين:

والخلافـات أكبر تحد وأخطر معول هـدام يقضى على هذه الأمة، ومن أجل ذلك نرى الاسـتعمار قبـل أن يغادر بعض الـدول التى تحررت ترك حـدودا مصطنعة وترك حدودا تمثل تنازعا واختلافات بين الدول حتى لا تتحد الأمة وحتى تظل فى خلافات سياسـية

(1) سورة المؤمنون ٥٢.

ودوليــة فيما بينهـــا... وإلى جانب الاختـــلاف على الحـــدود، راح أعداؤنا يضخمون الخلافــات الفقهية التى جرت بين العلماء فى بعض المســائل الفرعية، ففى جو الخلاف تضعــف الأمـــة، ويتغلب عليها عدوها، وبهذه الخلافات فى الأمور الدينية اســتطاعوا أن يحدثوا شروخا بين فصائل الشباب المسلم ولا شيء أقسى وأخطر من الاختلاف فى الدين، إنـــه اختلاف يتهدد دنيا الإنســان بالأخطار، ويتهدد أخرته كذلــك، ولذا اعتبره القرآن خروجــا عن حظيرة الإســلام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[1].

والذيــن يشــغلهم الخلاف يهدرون حياتهــم دون طائل، ويضيعــون أعمارهم من غير فائــدة. ومــن بين تلك التحديات مــا ينهض به أعداء هذه الأمة مــن محاولة حصرها فى موقف المدافع، لا فى موقع المنطلق لنشر دعوته، المهاجم بها لكل الأباطيل، وبهذا المخطط الخبيث بث أعداؤنا كثيرا من الشبهات التى تقع تحت حصر ليجعلوا المسلمين فى موقف المدافع عنها وليشــغلوهم بها، فانتشــرت دعاوى وشــبهات حول المرأة فى الإسلام وكون الرجل يأخذ ضعفها فى الميراث، وشــبهات أخرى حول تعدد الزوجات، وحول الطلاق، وانتشار الإسلام بالسيف أو بالقوة وكلها شبهات زائفة ولا أساس لها من الصحة، وتعاليم الإســلام ذاتها تحمل الحكم التشريعية العليا، والأســرار الإلهية التى تحمل سعادة البشر وتحمــل العدالــة والحق والخير فى كل تشــريع إلهى محكم... وليــس معنى هذا ألا نرد على تلك الشــبهات، بل المراد أن نرد عليها بالقيام بنشر الإسلام وإبراز فضائله ومحاسنه وتشــريعاته السمحه التى كانت من أهم الأسباب فى نشر الإسلام واعتناق الكثيرين له عن اقتناع ومحبه.

وهناك تحديات كثيرة عســكرية وسياســية واجتماعية واقتصاديــة وصحية وثقافية... وتتمثــل التحديات العســكرية فى الاســتعمار وغــزوه لكثير من البلاد والــدول والأقليات الإســلامية. وتظهر التحديات السياســة فى محاولة نشــر المنظمات السياســة التى تفرق

(١) سورة الأنعام ١٥٩.

الأمة فى تناحر، وخلافات لاتنتهى. وتظهر التحديات الاجتماعية، فى نشر التعامل فى المجتمع بتلك التقاليد الوافدة فى الأسرة وفى البيئة وفى الزى وغير ذلك من المجاملات الاجتماعية. وتتضح التحديات الاقتصادية فى نشـر التعامل بالربا ومحاولة تسـميته بغير اسمه، ومحاولة اسـتدانة الدول الإسـلامية ووقوعها غريقة بالديـون التى تضيع معها هيبتها، ويهتز معها قرارها.

وأما التحديات الصحية: ففى نشـر الخمور وتداولها والمخدرات والسـموم البيضاء وغيرها من المواد التى تقضى على صحتها وعلى عقل كل فرد من أفراد هذه الأمة.

وأما التحديات الثقافية: فتظهر فى الغزو الفكرى الذى يمثل أخطر هذه التحديات، والـذى يعمل علـى تغريب هذه الأمة وتغييب رسـالتها التى تقوم بهـا، وبإيقاف المد الإسلامى إلى الخارج وبضربه من الداخل. وفى محيط هذه التحديات المتعددة، والمحيطة بالأمة من كل جانب تصاب الأمة بالوهن، وتوشك الأمم أن تتداعى عليها بسبب ضعفها وتسبب الخلافات التى تفرق فيها، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ حين قال «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسـول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابـة منكم، وليقذفن فـى قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسـول الله؟ قال حب الدنيا، وكراهية الموت»[1].

وفى مواجهة تلك التحديات، لابد لنا من التمسك:

أولا: بالعقيدة الإسلامية، وهى عقيدة التوحيد التى نؤمن فيها بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا، ونؤمن فيها بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشـره، يتطابق الإيمان مع العمل.. والتمسـك بالإسـلام عقيدة يستوجب التمسك به تشريعا ومعاملة وسلوكا وأخلاقا والتمسك بالعقيدة الإسلامية عقيدة التوحيد، يجعـل مـن الأمة وحدة واحـدة لا تختلف ولا تتفرق بل تعتصم بحبـل ربها، كما قال

(١) رواه أحمد وأبو داود.

جل شأنه: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ والتمسك بعقيدة التوحيد يجمع الناس ويوحدهم فلا يخرج أحد عن الطاعة ولا يفارق الجماعة: قال ﷺ: «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات * مات ميتة جاهلية»[1].

ثانيا: أن نتمسك بالقرآن ونشر تعاليمه ومدراسته، وتطبيق ما جاء به من هداية ومنهج ربانى يهدى إلى أقوم السبل ولأهمية القرآن الكريم فى توحيد الأمة، وفى إمدادها بالقوة الإيمانية الكبرى، أدرك أعداؤها ما يمثله القرآن من خطر عليهم فقال المستر (غلادستون) وزير بريطانيا الأول وكبير أعمدة الاستعمار فى الشرق الأوسط: «ما دام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق بل ولا أن، تكون هى نفسها فى مأمن» . وقال «سيمون»: «إن الوحدة الإسلامية التى تجمع آمال الشعوب السمر، وتعبر عن أمانيهم هى التى تساعدهم على رفض السيطرة الأوربية والتخلص منها».

ثالثا: لابد من تكوين وحدة إسلامية بين جميع المسلمين، وحين يكون للمسلمين – على الأقل – موقف إسلامى فإنه لن يكون لتلك التحديات سبيل علينا، بل تصبح الأمة الإسلامية أكبر الدول والأمم وأقواها وأعزها. إن هذه الوحدة المنشودة هى التى دعا إليها الإسلام وأكد الدعوة إليها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2].

ودعا الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى توحيد المسلمين ومعاونة بعضهم فقال صلوات الله وسلامه عليه «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ثم شبك أصابعه»[3] وإن على المجتمعات والدول الإسلامية أن توحد موقفها وتتعاون لإنقاذ الأقليات الإسلامية، ومواجهة التحديات العالمية وعلى جميع الدول الإسلامية أن تمد يد العون لكل البلاد المحتاجة والفقيرة وتساعد الأقليات، وتخلصها مما يديره لها أعداء الإسلام، وحتى لايكون لتيارات الفساد والشر سبيل لها.... ويوم أن تتحد بلاد العالم الإسلامى

(١) رواه البخارى.
(٢) سورة الحجرات ١٣.
(٣) سورة البخارى.

وتتوحد على هدف منشود تحقق به خيريتها، وتنصر دينها، يوم أن ينصرها الله نصرا مؤزرا، ويمكن لها فى الأرض لتقيم شـريعة الله فى الأرض، مؤكدة صلتها به، ومقوية روابطها بالمجتمع، ومدافعة عن دين ربها، آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[١].

❑❑❑

(١) سورة الحج ٤٠، ٤١.

دعوة الإسلام إلى الوقاية من الأمراض
ومن مرض (الإيدز)

يجب أن تتوافر جهود المصلحين الدينية والطبية والثقافية والاجتماعية وغيرها، بحيث تتكامل جميع الجهود المبذولة فى مجال الوقاية من هذا الخطر الداهم الذى يتمثل فى مرض الإيدز وفى غيرة من الأمراض التى تنقل جنسيا، كما يجب أن تتضافر هذه الجهود أيضا فى مكافحة هذه الأمراض ومقاومتها وبادىء ذى بدء ننبه إلى أمر هام دعا إليه الإسلام وهو :

ضرورة الوقاية من هذه الأمراض ومن غيرها، وحماية الأبدان من الإصابه بأى مرض منها والحرص على الصحة والحفاظ عليها تجنبا لوقوع المرض .

دعوة الإسلام إلى الوقاية من الأمراض

لقد دعا الإسلام إلى الوقاية من الأمراض قبل وقوعها، بحيث لاينتظر الناس حتى تقع ثم يبحثون عن العلاج. بل عليهم أن يحافظوا على أنفسهم وبيئتهم من الوقوع فى هذه المخاطر، فإن الوقاية خير من العلاج.

فنرى التعاليم الإسلامية حين أباحت الأكل والشرب نهت عن الإسراف فقال الله تعالى ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[1] ...

وقد اشتملت هذه الآيه الكريمة على مافيه صحه البدن كله. أوجز الله ذلك فى كلمتين، حيث أرشد الخلق إلى مايقيم البدن من الأكل والشرب عوضا عما تحلل منه، وأن يكون ذلك بقدر ما ينتفع به البدن كما وكيفا، وبحيث لا يجاوز ذلك القدر المطلوب، وإلا كان إسرافا، وكلا الأمرين:

عدم الآكل والشرب أو الإسراف فيه ضرر. وصحة الأبدان من النعم الإلهية التى يجب الحفاظ عليها وحمايتها.

عن عبد الله بن محصن الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح معافى فى جسده آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»[2].

---

(١) سورة الأعراف ٣١.

(٢) رواه الترمذى.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)(١).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: (أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم: أن يقال له: ألم نصح لك جسمك؟ ونروك من الماء البارد)(٢).

وعن أبى بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتى أحد بعد اليقين خيرا من العافية»(٣).

وهكذا ما ترك الإسلام جانبا من جوانب المحافظة على الصحة إلا دعا إليه.

ومن توجيهات الإسلام فى الحفاظ على الصحة والوقاية من الأمراض النهى عن دخول أرض بها مرض الطاعون، والنهى عن الخروج منها إذا نزل المرض بها، حفاظا على الناس ووقاية لهم، حتى لاينتشر الوباء بينهم بل يحصر فى نطاقة الذى هو فيه فحسب.

تحريم الشذوذ الجنسى وإتيان النساء فى المحيض

اكتشف العلم الحديث والبحث الطبى أن من أبرز وأخطر الأسباب لانتشار عدوى هذا المرض الحديث (الإيدز) الذى يتميز بعدم المناعة، أو فقدانها فى جسم الإنسان «الشذوذ الجنسى» بأشكاله وإتيان النساء فى المحيض. وهى أمور حرمها الإسلام تحريما حاسما، وحذر منها أيما تحذير وجاء النهى عنها واضحا فى كتاب الله تعالى، حيث قال جل شأنه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤).

(١) رواه البخارى

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه أحمد.

(٤) الأيات رقم ٢٢٢- ٢٢٣، سورة البقرة.

وقال جل شأنه:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1] قال تعالى ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[2].

وهكذا نبه القرآن الكريم عن تحريم إتيان النساء فى المحيض وتحريم الشذوذ الجنسى لما يترتب على ذلك من الأضرار الصحية، ويأتى العلم الحديث اليوم فيكشف مرض الإيدز، وهو فقدان المناعة فى جسم الإنسان الذى ترتفع معدلات العدوى به بين المصابين بالشذوذ الجنسى ومن يأتون النساء فى أوقات المحيض أو فى غير المكان الذى شرع كأن يأتى الرجل زوجته فى دبرها، أو الذين يمارسون الشذوذ الجنسى فى الرجال وقد أثبتت الأبحاث الطبية أن أكثر من سبعين فى المائة من هؤلاء الشواذ يصابون بعدوى الإيدز فى حالة وجود الفيروس لدى أحد الطرفين. ولقد قيل إن من مهيئات ضعف المناعة وجود مادة البروستجلاندين فى المنى، والتى يمكن أن تسبب قدرا من نقص المناعة بتأثيرها على الخلايا الليمفاوية التى تحتمل أن تحوى إفرازات الرحم مواد مضادة لها. أما إفراغ المنى فى المهبل فلا ينتج عنه إضعاف المناعة. وبهذا تتبين حكمة تحريم الشذوذ الجنسى وتحريم إتيان الزوجة فى دبرها[3].

وقد سبق الإسلام هذه الاكتشافات العلمية الحديثة لهذه الأمراض المترتبه على إتيان المرأة وقت المحيض أو فى غير المكان الذى أباحه الله أو بسبب الشذوذ الجنسى بين الرجال، حيث حرم ذلك كله منذ أكثر من أربعه عشر قرنا كما وضح من الأيات

(١) سورة العنكبوت ٢٨، ٢٩.

(٢) سوة النمل ٥٤، ٥٥.

(٣) مدخل إلى الطب الإسلامى الدكتور على مطاوع.

السابقه، ومن التوجيه النبوى الحكيم فقد قال رسول الله ﷺ : (من أتى حائضا أو امرأة فى دبرها، أو كاهنا فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)[1].

وقال صلوات الله وسلامه عليه:

(«لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلا أو امرأة فى الدبر»)[2]

أسباب الإصابة بمرض الإيدز

تحدثنا من قبل عن طريقة نقل العدوى من خلال الاتصال الجنسى بين شخصين أحدهما يحمل العدوى وقلنا أن اللواط والزنا وغيرهما من صور الانحراف الجنسى من أهم مداخل العدوى إلى جسم الإنسان السليم.

ولقد أثبت العلم الآن أن هناك مداخل أخرى للعدوى عن طريق نقل الدم أو مشتقاته الملوثة بأدوات تحمل الفيروس، أو وخز الجلد أو تخدشه بآدوات ملوثة، وذلك هو ما يفعله مدمنوا المخدرات الذين يتشاركون فى تعاطى المخدرات الوريدية بمحاقن أو إبر ملوثة.

ولقد أمر الإسلام أتباعه بالوقاية من العدوى حتى لا تصيبهم الأمراض، عن جابر بن عبد الله أنه كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبى ﷺ: (ارجع فقد بايعناك)[3] أى أنه ﷺ لم يجعل الرجل المريض يأتى ويبايع ومعروف أن فى البيعة مخالطة وملامسة حيث يضع المبايع يده فى يد من يبايعه فأمره الرسول ﷺ أن يرجع وأخبره أنه قد بايعه دون أن يحضر وقاية من انتشار المرض، وخوفا من حدوث العدوى. وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: («فر من المجذوم كما تفر من الأسد»)[4] فكما

(١) رواه أحمد والترمذى.

(٢) رواه الترمذى.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخارى.

يخاف الشخص من افتراس الأسد له أو إيذاء الحيوان للإنسان فيفر من الأسد حفاظا على حياته، فكذلك الحال بالنسبة للمجذوم يأمر الرسول ﷺ بأن يفر السليم من المجذوم مخافة العدوى كما يفر من الأسد مخافة الأذى. وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لايوردن ممرض على مصح))[1]. وفى هذه النصوص دعوة إلى الوقاية، والبعد عن العدوى وأسبابها. بيد أن هناك بعض الأحاديث التى قد يتبادر إلى بعض الأذهان من ظاهر ألفاظها ما يفيد انتفاء العدوى، ولكنها عند التمعن وإيضاح معانيها لا تعارض مع النهى عن العدوى، وأسبابها. ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لاعدوى ولا طيرة)[2].. ومنها ما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ أخذ بيد رجل مجذوم فأدخلها معه فى القصعة وقال: ((كل باسم الله، ثقة بالله، توكلا عليه))[3]. نقول: لاتعارض بين هذه الأحاديث وبين ما سبق من التحذير من العدوى، فالأمر باجتناب المجذوم على الاستحباب، وأما الأكل معه ففعله لبيان الجواز (وكان أهل الجاهلية يعتقدون أن الأمراض المعدية تعدى بطبعها من غير إضافة إلى الله سبحانه، فأبطل النبى ﷺ اعتقادهم ذلك وأكل مع المجذوم ليبين لهم أن الله سبحانه هو الذى يمرض ويشفى. ونهى عن القرب منه ليتبين لهم أن هذا من الأسباب التى جعلها الله مفضية إلى مسبباتها. ففى نهيه إثبات الأسباب، وفى فعله بيان أنها لا تستقل بشىء، بل الرب سبحانه إن شاء سلبها قواها، فلا تؤثر شيئا، وإن شاء أبقى عليها قواها فأثرت[4] فالعدوى لا تؤثر بذاتها بل يفعل الله سبحانه وتعالى. وإذا كان الله تعالى قد حرم الوطء فى الفرج تجنبا للأذى عند المحيض فما بالنا بما هو أشد أذى من ذلك وأخطر كاللواط وغيره من صور الشذوذ الجنسى، وفيها زيادة الضرر والمفسدة؟ لاشك إنه أكد فى التحريم والنهى

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) رواه البخارى.
(٣) رواه الترمذى.
(٤) زاد المعاد لابن القيم.

عنه. وقال الله تعالى – فى شأن تحريم ماعدا الزوجة وملك اليمين الذى كان معروفا قديما:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾[١]. ولم يقتصـر الإسـلام على تحريم المحرمـات التى نهى عنها فحسـب بل وضح أن فيهـا أذى حتى يبتعد الناس عنها، ويقفوا على ما فيها من أضرار، وما يترتب عليها من أمراض وآلام. كما أمرنا الإسلام بأن نجنب أنفسنا أخطار التعرض لأسباب المهالك، فقد جاء فى كتاب الله العزيز:

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ صدق الله العظيم[٢].

تنبؤ الرسول صلى الله عليه وسلم بالأمراض الحديثة

يقول علماء الطب والعلم الحديث: إن أمراضا حديثة اكتشـفت فى الفترة الأخيرة، ولم تكـن معروفة أو موجودة فى الزمن الماضى ومنها على سـبيل المثال لا الحصر مرض الإيدز. وإذا نظرنا إلى الهدى النبوى الشـريف وجدنا أن الرسـول عليه الصلاة والسلام يقول: («لم تظهر الفاحشـة فى قوم قط إلا ظهر فيهم الطاعون، والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم»)[٣]... ولنذكر الحديث بأكمله كما ذكره الإمام الهيثمى: عن عطاء بن أبى رباح قال: كنا مع ابن عمر، فجاء فتى من أهل البصرة فسأله عن شىء فقال: سأخبرك عن ذلك قال: كنت عند رسول الله ﷺ عاشر عشرة فى مسجد رسول الله ﷺ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود وحديفة وأبو سعيد الخدرى ورجل أخر سماه وأنا. فجاء فتى من الأنصار، فسـلم على رسـول الله ﷺ ثم جلس فقال: يا رسول الله أى المؤمنين أفضـل؟ قال «أحسـنهم خلقا» قال: أى المؤمنـين أكيس؟ قال: (أكثرهـم للموت ذكرا وأكثرهم له استعدادا قبل أن ينزل بهم – أو قال ينزل به – أولئك الأكياس) ثم سكت،

---

(١) سورة المؤمنون ٥ – ٧.

(٢) سورة البقرة ١٩٥.

(٣) مجمع الزوائد جـ ٥ ص ٣١٧ وذكر الهيثمى أنه رواه البزار ورجاله ثقات، وروى ابن ماجة بعضه.

وأقبل النبى ﷺ فقال: (لم تظهر الفاحشة فى قوم قط إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ولانقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونه وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السما ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوهم فأخذ بعض ما كان فى أيديهم، ولم يحكم أئمتهم بغير كتاب الله الا جعل الله بأسهم بينهم.... فظهور الأمراض التى لم تكن موجودة من قبل هى نتيجة لتمرد الخلق على تعاليم الخالق وخروجهم على فطرة الإيمان التى فطرهم الله تعالى عليها، وعصيانهم وظهور الفاحشة فيهم.. فإنه يترتب على ظهور الفاحشة بكل أنواعها من زنا أو شذوذ جنسى أو إتيان للمرأة فى غير المكان الذى أباحه الله أو إتيان الرجال للرجال أو النساء للنساء أو الزنا العادى الذى هو إتيان الرجل للنساء فإن فيه انتشار للأمراض والأوبئة التى تظهر فى كل زمان ومكان كلما ظهرت الفاحشة أعاذنا الله منها.

❑❑❑

وجوب تكامل الجهود للوقاية

يجب على الأمة الإسلامية وجوبا عينيا يفرضه عليها دينها أن تقوم بمقاومة هذه الأمراض وأسبابها بدءا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونشر الوعى الدينى مع الوعى الصحى جنبا إلى جنب، فإن الناس منهم من يردعه الوازع الدينى ومنهم من يردعه الوازع الصحى ومنهم من يحتاج إلى الأمرين معا. وحتى يتكامل الوعى الدينى مع الوعى الصحى لبيان حكم الشرع فى ارتكاب أسباب هذه الأمراض وتلك الأوبئة وبيان الآثار الصحية، لابد من تضافر الجهود الإعلامية لنشر الوعى الدينى والصحى.. ولكى ينتشر انتشارا حقيقيا مؤثرا لابد أن يأتى بطرق متعددة منها ما هو اختيارى كالذى تقوم به وسائل الإعلام ومنها ما هو واجب وإلزامى، كأن يدخل الوعى الصحى والدينى بهذه الأمراض وأسبابها والدعوة إلى الوقاية منها فى المناهج الدراسية والتعليمية فى المدارس والمعاهد والجامعات والأكاديميات، وأن تكون المناهج ملائمة لكل الأعمار والمستويات وبالأسلوب الدينى الصحى الواضح الذى لا تعقيد فيه ولا غموض.

ومما سبق يتضح أنه لتكامل الجهود المبذولة للوقاية، لابد أن تتضافر جهود علماء الإسلام مع جهود أساتذة الطب والوقاية، مع جهود وسائل الإعلام وجهود القائمين على المؤسسات التعليمية الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعة فى جميع مراحل التعليم.

أما المواقع الأخرى غير التعليمية كالمصانع والشركات والمتاجر و المزارع وغير ذلك من القطاعات الأخرى التى قد يعمل فيها من لم يمر بمرحلة من مراحل التعليم السابقة، فلابد أن يكون بها قطاع أو هيئة تقوم على سبيل الإلزام بنشر هذا الوعى الدينى والصحى. وعلى المصلحين والدعاة وعلماء الإسلام واجب التوعية الدينية فى هذا المضمار بصفة خاصة لأنهم أهم هذه القطاعات كلها وأكثر التخصصات تأثيرا فى الدعوى إلى الأخلاق الفاضلة التى تبقى الأمم ببقاء أخلاقها، وتفنى بفنائها، وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

نظام الحسبة فى الإسلام

الحسـبة كلمة تدل على تقديم العمل لله تعالى، فيقولها احتسـب الأمر عند الله أى قدمه ونوى به وجه الله تعالى.

وهى وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبرز نظام الحسبه منذ فجر الإسـلام بمتابعة التجارة من بيع وشـراء، ومراقبة الأسواق والمكاييل والموازين وقد كان رسـول الله صلوات الله وسلامه عليه وسـلم يراقب الأسواق بنفسه، عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال: ماهذا ياصاحب الطعام؟ فقال: أصابته السـماء يارسـول الله فقال عليه الصلاة والسلام: «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟ ثم قال: من غشنا فليس منا».

ومن ذلك أيضا ما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قام فى الناس خطيبا فقال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: «يا أيها الذين أمنوا عليكم أنفسـكم لايضركم مـن ضـل إذا اهتديتم» وإنكم تضعونها فى غير موضعها، وإنى سمعت رسـول الله ﷺ يقول: «إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»[1].

وبـرز نظـام الحسـبه واضحا فى عهـود الإسـلام الأولى عندما اتسـعت المعاملات والتجارات، قال الإمام الماوردى: «لما اتسـع نطاق التجارة وأصبحت مورد الأهل الأعواز مـن كافة البلاد يتناولون فيها حاجتهم مـن المال وقع غش فاحش فى التجارة وصارت الصيارف من اليهود وغيرهم يعطون مالهم بالربا على أن يعاد عليهم المثل فى نهاية العام مثلين وأكثر منه، فأقام الرشيد محتسبا، ليكون بالأسواق والفحص والأوزان والمكاييل من الغش وينظر فى معاملات التجارة».

---

(١) رواه الترمذى.

وظائف الحسبة

وللحسبة وظائف منها:

(١) القيام بالدعوة إلى إصلاح الأمة دينيا وخلقيا واجتماعيا واقتصاديا وقيام كل صاحب تخصص بالإصلاح فى مجال تخصصه ويمنع أن يخوض أحد فى غير ما تأهل فيه فليس لغير العلماء الأكفاء أن يدلوا برأيهم فى أحكام الشريعة ولا لغير الأطباء الماهرين أن يتكلموا فى مسائل الطب وهكذا...

(٢) ومن وظائف الحسبة كذلك رعاية شئون الحياة التى قد لا تصل إلى ولى الأمر أو لا يستطيع أن يمر على جميع الناس بشأنها فيقوم المحتسب بمتابعتها ومراقبة الكيل والميزان والعقود والاحتكار والغش بين الناس فى المعاملات، ومراقبة الأداب العامة.

(٣) ومن وظائف الحسبة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والمعروف: هو كل ما عرف من الشرع حسنه وأمر به من اعتقاد أو قول أو عمل، والمنكر: هو كل ما عرف ما الشرع قبحه ونهى عنه من اعتقاد أو قول أو عمل، ولا يكون التصدى لتغيير المنكر إلا بعد التأكد من وجود المنكر ورؤيته بالعين، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[1] فقال فى الحديث: «من رأى منكم منكرا..» ولم يقل من علم أو نحو ذلك حتى لا يأخذ الناس بعضهم بالظن وبمجرد الشائعات. ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر «أمور عامة» لاتخفى على عامة الناس كفريضة الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك فالدعوة من عامة الناس إليها لابأس بها ومن ذلك النهى عن الفاحشة والعدوان على الأنفس والأموال والأعراض. ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر «أمور خاصة» دقيقة ولها أحكامها الشرعية التى لا يصح أن يتصدى لها إلا العلماء والفقهاء والمتخصصون فى أمور الشريعة الغراء. فيشترط فيمن يتصدى لذلك أن يكون عالما بالأحكام ودقائقها، وأن

(١) رواه مسلم.

يكون عالما بأن دعوته مثمرة وأن الناس سيستجيبون أو يغلب على ظنه ذلك وبحيث لا يؤدى إنكاره للمنكر إلى ارتكاب منكر أشد منه بألا يأمن على حياته بسبب ذلك مثلا. وكما يكون ذلك بين الأفراد بعضهم بعض يكون أيضا بين الأمم والدول والمجتمعات.

(٤) ومن وظائف الحسبة متابعة الأمور العامة ومرافق الدولة كالمستشفيات والمدارس والمساجد والأسواق والأبنيه ليرى مدى توافر الإخلاص فى العمل فيها وإتقانها

(٥) إقامة مشروعات البر والخير والسعى لمساعدة المحتاجين والمنكوبين والفقراء وأصحاب الحاجات.

(٦) الإصلاح بين الناس، ونشر الفضائل والنهى عن الرزائل.

(٧) إرشاد السائرين، وهداية الضالين والحائرين والنصح للناس أجمعين.

(٨) مساعدة ولاة الأمور فى استتباب الأمن والاستقرار، والسلام والرخاء.

(٩) السعى على مصالح الناس وقضاء حوائجهم ورفع مطالبهم لأولى الأمر.

شروط المحتسب

يشترط فى المحتسب أن يكون مؤمنا، عالما بحكم الشرع قادرا على ذلك. واشترط الإمام الماوردى أن يكون عدلا عاملا بما يأمر به منتهيا عن ما ينهى عنه، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾[1] كما يشترط أن يحرص على درء المفسدة فهى مقدمة على جلب المصلحة، فإن كانت المصلحة أعظم من المفسدة، وجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. أما إذا ترتب على جلب المصلحة أو على الأمر والنهى عن المنكر حدوث مفسدة أكبر من المصلحة فلا يجب عليه بل أحيانا يحرم عليه ذلك كأن كان يوقن أنه إن تصدى لهذا الأمر قتل مثلا. وعليه أن يرتب الأمور حسب أولويتها فيبدأ بالأهم فالمهم، فيبدأ بأصول الإيمان ثم الفرائض ثم ترك المحرمات ثم أداء النوافل والسنن ثم ترك المكروهات وهكذا ففى وصية رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «إنك تأتى أقوما أهل كتاب

(١) سورة الصف ٢ – ٣.

فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم وإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١) ومن هذه الشروط: ألا يتجسس على الناس للنهى عن ذلك، وقد جاء فى «الأحكام السلطانية» للماوردى: «ليس للمحتسب أن يبحث عما لم يظهر من المحرمات» كما يشترط أن يكون رفيقا بمن يتصدى لهم غير غليظ وأن يكون مخلصا صابرا متواضعا متثبتا مما يتناوله بالأمر أو النهى، عارفا بأحوال الناس، قادرا على مهمته، واسع الصدر لقبول أراء المجتهدين فى المسائل فلا يتعصب لرأى دون رأى ولا لمذهب دون مذهب وأن يكون عفيفا متنزها عما فى أيدى الناس وعن أموالهم، ورعا فى كل ما يقدم إليه من هدايا من أرباب الصناعات وأصحاب الأعمال، لأن الهدية المقنعة نوع من الرشوة وقال سبحانه ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾(٢).

حكم الحسبة

يرى جمهور الفقهاء أن الحسبة واجبة على كل مسلم قادر، لقول الله تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(٣)

ويرى بعض العلماء: أن الحسبة وإن صحت من كل إنسان مسلم تتحقق فيه شروط المحتسب إلا أنها لا تكون واجبه إلا بتفويض من ولى الأمر، لما فيها من ولاية، ولما قد يؤدى إليه أمرها حين لا تكون عن تفويض من ولى الأمر من فوضى وفتنه وإضرابات. والذى نراه ونرجحه هو أن القائم بالأمر أو النهى إن كان مجرد ناصح بالحكمة فى الأمور

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) سورة البقرة ١٨٨.

(٣) سورة التوبة ٧١.

التـــى لا يحتاج فيها إلى إذن ولا تحتـــاج إلى تخصص علمى فيجوز أما فوق ذلك من الأمور الأخرى والأحكام الشرعية وما يحتاج إلى القضاء ونحو ذلك فينبغى أن يكون عن طريق والى الحسبة الذى عين من قبل ولى الأمر.

ولاية الحسبة

وكانت ولاية الحســبة غير ثابتة على جهة معينة فى الدولة فكانت متصلة من قبل بولاية القضاء وذلك عندما كانت الســلطة مع الخلافة. أما عندما انفصل الســلطان عن الخلافة أفردت الحسبة بولاية مستقلة.

قـــال ابـــن خلدون: «إن صاحب هذه الوظيفة هو القائم على الأحكام التى يتنزه عنها القاضى لعمومها وســهولة أغراضها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء، وقد كانت فى كثير من الدول الإسلامية فى مصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخله فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاما فى أمور السياسة تدرجت فى وظائف الملك وانفردت بالولاية..».

الحسبة فى عصرنا الحاضر

وحيث رأينا فيما سبق كيف كانت ولاية الحسبة ووظائف المحتسب، فإننا بالقياس إلى ما جد فى عصرنا الحاضر، نرى أن أعمال الحســبة موزعة على حسب مسئوليات أجهزة الدولة ومؤسساتها:

- فنـــرى مثلا القائمين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الدعاة والعلماء ورجال الأزهر الشـــريف كل فى تخصصه فى الدعوة والفقة والتوحيد والتفســير والحديث ونحو ذلك لهم أجهزتهم المعنية فى الدولة (الأزهر ووزارة الأوقاف) وهذا التنظيم القائم أحكم وأدق من أن يـــترك الأمر لعامة الناس يخوض فيه كل مـــن هب ودب عن غير تخصص وعن غير كفاءة علمية مقننة ومحكمة ومرخص لها بهذا العمل الهام، فى أمور الأحكام.
- ونـــرى أجهـــزة ووزارات أخرى تأخـــذ أيضا اختصاصات وصلاحيات المحتســـب مثـــل وزارة التمويـــن والتجارة، والصحه والتعليم، والعمل، والشـــئون الاجتماعية وهكذا..
- ونرى أيضا جهازا أخر يراقب ويحاســـب الأجهزة الحكومية وهو : الجهاز المركزى

للمحاسبات – ونرى جهازا أعلى يراقب الجميع ويقوم بدور الرقابه، ودور التشريع وهو المجلس النيابى «مجلس الشعب».

وهذا التوزيع لمهام «الحسبة» كان ضروريا لكثرة الناس وكثرة المصالح وتعددها وتطورها مما استدعى تطور الأجهزة القائمة بهذه المهمة.

❑❑❑

صناعة الشائعات المغرضه وعقوبة الذين يرددونها

إن الإســلام هو دين الصدق والأمانة، والحق والعدل، لا يقبل من أتباعه أن يكونوا كذابين، ولا خوانين، ولا مبطلين ولا ظالمين، ولكن بعض الذين لهم غرض، وفى قلوبهم مرض، لا يقبلون أن يعيشوا فى مناخ الأمن النفسى، والصدق والحق، بل فى مناخ ملبد بغيوم البلبلة والشـائعات، فإذا لم يجدوا شيئا يساعدهم على ذلك، اختلقوا الأكاذيب، وصنعوا الشـائعات، وأحدثوا فى المجتمع فتنا هوجــاء، وتلك طبيعة خبيثة فى بعض الناس، وهؤلاء هم الذين حذر الله سبحانه وتعالى منهم، ووصفهم بأنهم الشياطين، لأن من الشياطين شياطين الإنس وشياطين الجن ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ وترى شياطين الإنــس لا يرضون نجاح الناس ولا إخلاصهم وإنمــا يغيظهم نجاح الناجحين وإخلاص العاملــين فيحاولون أن يهيلــوا عليهم التراب، وأن يفتروا عليهم الكذب بالكلمة المنقولة بين الناس حينا والكلمة المكتوبة حينا آخر، ولا يفعلون ذلك إلا وهم غير مؤمنين بآيات الله، كما قال رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾(١).

وقد بين رســول الله ﷺ عقوبتهم عن أبى الدرداء رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من ذكر امرءا بشــىء ليس فيه ليعيبه به حبســه الله فى نار جهنم حتى تأتى بنفاد ما قال به»(٢) وفى روايه «أيما رجل أشــاع على رجل مسلم كلمة وهو منها برىء يشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه يوم القيامة فى النار حتى يأتى بنفاد ما قال»

ولقد دعا الإســلام إلى صيانه حرمة الأعراض كما دعا إلى صيانة حرمة النفس والمال وقال صلوات الله وسلامه عليه فى حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا».

(١) سورة النحل: الآية ١٠٥.

(٢) رواه الطبرانى.

وعبر كل العصور ومنذ كان تاريخ الخليقة ولكل نبى عدو من المجرمين، وللعلماء والمصلحين والرواد من ميراث النبوة ما يجعلهم يواجهون الأذى دون التأثر به، لأن لهم إيمانا راسخا لا تزعزعه أعاصير الشائعات المزورة، ولا رياح الفتن الهوجاء التى يفجرها أهل الباطل وأصحاب الأهواء الخسيسه والرغبات الظالمة والفكر المغشوش.

هذا وإن جريمة الزور والبهتان تأتى - فى شناعتها - بعد جريمة الشرك وعبادة الأوثان حيث قال سبحانه: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾(1) ولقد وصل بأصحاب الشائعات الملفقة والافتراءات المزورة أن كانوا ينالون من الرسول ﷺ وكان الله تعالى يكشفهم له ويقول له ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(2) ويأمره الله تعالى ألا يلتفت إليهم وألا يتأثر بهم ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾(3) بل وصل بأصحاب القلوب المريضة ومن فقدوا الإيمان وضلوا ضلالا مبينا أنه لم يسلم من أذاهم وشائعاتهم وإفكهم أحد فهم أهل البهتان والمروجون للزور والمؤلفون لوقائع الكذب فنالوا من الله ورسوله والمؤمنين، ولذا بين الله تعالى جزاءهم على ذلك فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾(4) فإذا كان إيذاء الأشرار لم يسلم منه النبى المرسل، ولا الإله الخالق، فكيف بنا نحن البشر!!

وصدق القائل:

والله لو صحب الإنسان جبريلا	لم يسلم المرء من «قال» ومن «قيلا»
قد قيل فى الله أقوال مصنفة	تتلى إذا رتل القرآن ترتيلا
كم قيل: إن له نجلا وصاحبة	زورا، ومينا وتكذيبا وتضليلا

(١) سورة الحج ٣٠.
(٢) سورة يس ٧٦.
(٣) سورة الأحزاب ٤٨.
(٤) سورة الأحزاب ٥٧، ٥٨.

إن كـــان قـولهــم فـــى اللــه ربهم فكيف لو قيــل فينا بعض ما قيل

إن الواجــب على أمتنا أن تضــرب على أيدى هؤلاء الإنهزاميين الملتمســين للبرءاء العيب الذين ينشــرون قالة الســوء بين الناس وعلى الصفحات المظلمة المســمومة ليهزوا كيان الأمه ولينالوا من رموز الأمة العربية والإسلامية ومن رموز الإسلام فى وقت تداعى فيــه أهل الباطل على أمتنا . إننا كمظلومين والله يســتجيب دعاء المظلوم ويرفع دعوته فــوق الغمام ويقــول الرب (لأنصرنك ولو بعد حين) كما يجيــب دعاء المضر نضرع إلى الله تعالى ونجأر إليه .. اللهم عليك بمن آذنا، اللهم من أرادنا بسوء فاجعل تدميره فى تدبيره واشغله بنفسه وانصرنا على القوم الظالمين ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

❑❑❑

القدس مدينة السلام

الإسلام والقدس

لقد سجل القرآن الكريم، مكانة القدس، حين وضح أن الله سبحانه وتعالى أسرى بعبده وحبيبه سيدنا محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، حيث قال جل شأنه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[1].

وسمى بالمسجد الأقصى، لبعد مابينه وبين المسجد الحرام وكان أبعد مسجد عن أهل مكه فى الأرض يعظم بالزيارة.

والمراد بالبركة المذكورة فى الآية الكريمة، فى قوله تعالى: (الذى باركنا حوله) هى البركة الحسية والمعنوية، فأما الحسية فهى ما أنعم الله تعالى به على تلك البقاع من الثمار، والزروع والأنهار، وأما المعنوية فهى ما اشتملت عليه من جوانب روحية ودينية، حيث كانت مهبط الصالحين، والأنبياء والمرسلين، ومسرى خاتم النبين وقد دفن حول المسجد الأقصى كثير من الأنبياء والصالحين.

والمسجد الأقصى: هو أحد المساجد الثلاثه التى تشد إليها الرحال، عن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى».

ومعنى هذا الحديث: أنه لايسافر أحد لمساجد للصلاه فيها إلا لهذه المساجد الثلاثة، لأنه لايسافر أصلا إلا لها. وقد بنى المسجد الأقصى بعد المسجد الحرام بأربعين سنة، كما جاء فى الحديث الصحيح: عن أبى ذر رضي الله عنه قال:

قلت: يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أولا؟ قال: المسجد الحرام.

قلت: ثم أى؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهم؟ قال: أربعون سنة، وأينما أدركت الصلاة فصلى فهو مسجد.

(١) سورة الإسراء ١.

وللمســجد الأقصى مكانته الجليلة فى الإســلام، فهو أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين...

روى الطــبرى فــى تاريخه، عن قتاده قال: كانوا يصلون نحو بيت المقدس ورســول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة وبعدما هاجر رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا.

ومما يدل على فضل بيت المقدس ومكانته، أنه أرض المحشر والمنشر.

وعــن ميمونــه مولاة رسـول الله ﷺ قالــت: قلت: يارســول الله أفتنا فى بيت المقدس؟ قال«أرض المحشــر والمنشر" ائتوه فصلوا فيه، فإن الصلاة فيه كألف صلاة فى غيره».

وعن ابن عباس – رضي الله عنه قال: قال رســول الله ﷺ: «من أراد أن ينظر الى بقعة من الجنة فلينظر إلى بيت المقدس».

وفــى مدينة القدس عدد كبير من الصحابــه والتابعين، منهم الصحابى الجليل عبادة بن الصامت وشــداد بن أوس. فهو مهد النبوات والشــرائع، والرســل الذين وجدوا هناك فى هذا العصر، ولقد كان المســجد الأقصى قبلة لهم، وهذا كله يمثل البركــة الدينية التى أحاطــت به. وأما البركة الدنيوية: فكثرة الأشــجار والأنهار وطيب الأرض، وهذا مايرد بقوله تعالى: «الذى باركنا هوله».

وروى أن الذى أســس المســجد الأقصى هو يعقوب بن إسحق صلى الله عليهما وســلم بعد بناء إبراهيم الكعبة، وقد قام ســليمان عليه السلام بتجديده، وقد شكل ذلك، لأن بانى البيت الحرام إبراهيم عليه السلام وبانى المسجد الأقصى داود وابنه ســليمان بعده، وبينهمــا مدة طويلة تزيد على الأربعــين التى ذكرت فى الحديث المــروى فى الصحيحين عن أبى ذر رضي الله عنه قال: ســألت رســول الله ﷺ عن أول مســجد وضع علــى الأرض؟ فقال المســجد الحرام، قلت: ثم أى؟ قال: المســجد الأقصــى، قلت: وكم بينهما؟ قال: «أربعون عاما ثم الأرض لك مســجد، فحيثما أدركت الصلاه فصل فيه فإن الفضل فيه».

وأجاب عن هذه الإشكال أبو جعفر الطحاوى فى شرح معانى الآثار: بأن الوضع غير البناء، والسؤال فى الحديث السابق عن مدة ما بين وضعهما لا عن مدة ما بين بنائهما فيحتمل أن يكون واضع الأقصى بعض الأنبياء قبل داوود وسليمان، ثم بنياه بعد ذلك. وللمسجد الاقصى ارتباط وثيق بعقيدتنا وله ذكريات عزيزة وغالية على الإسلام والمسلمين، فهو مقر للعبادة، ومهبط للوحى ومنتهى رحلة الإسراء وبداية رحلة المعراج.

وقد مر الرسول ﷺ فى رحلته إلى المسجد الأقصى بالبقعة المباركة التى كلم الله فيها موسى عليه السلام، وهى طور سيناء فصلى بها ركعتين.

ومر بالبقعة المباركة التى ولد فيها عيسى عليه السلام، وهى: «بيت لحم» فصلى بها ركعتين، ثم وصل إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى جمع من الأنبياء والرسل فصلى بهم جميعا، ثم عرج به إلى السماء فرأى من آيات ربه الكبرى.

ولما عاد رسول الله ﷺ من هذه الرحله المباركه، وأخبر قومه، كان منهم من صدق، ومنهم من كذب.

وذهب بعضهم إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وأخبروه، فما كان جوابه إلا أن قال لهم.

والله لئن كان قوله لقد صدق، قالوا: تصدقه على ذلك؟ قال: إنى أصدقه على أبعد من ذلك أصدقه على خبر السماء، وقد تمادى القوم فى لجاجهم وحوارهم، يسألون الرسول ﷺ فى تعنت عن بيت المقدس، ومنهم من قد كان رأه، وظنوا أنهم بهذة الأسئلة سيوقعون الرسول ﷺ فى حرج. ولكنه هو المؤيد من قبل ربه – وقد وصف لهم بيت المقدس وصفا كاملا فى غاية الدقة، وأخبرهم عن آياته، يقول ﷺ: " فجعلت أخبرهم عن آياته، فالتبس على بعض الشئ فجلى الله لى بيت المقدس ثم جعلت أنظر إليه دون دار عقيل، وأنعته لهم «فقالوا: أما النعت

فقد أصاب وكان ابو بكر الصديق رضي الله عنه - كلما وصف لهم الرسول ﷺ وصفا - يقول: صدقت أشهد أنك رسول الله ثم أخبرهم عن عيرهم، وعن أحمالها، وعن دقائق الملابسات ووصفها أكمل وصف، وقال لهم تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس، وفيها فلان وفلان، يقدمها جمل أورق عليه غرتان محيطتنا، ومع وضوح الأدلة فقد لج القوم فى عنادهم ولم يصدقوا تلك المعجزة الواضحة فقد طمس الله على أبصارهم وبصائرهم «ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» وفى رحلة الإسراء والمعراج فرض الله سبحانه وتعالى الصلاة، وهى الصلة القوية بين العبد وربه وكانت القبلة آنذاك هى صخرة بيت المقدس حيث امر الرسول ﷺ باستقبالها وكان بمكة يصلى فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة تعذر عليه أن يجمع بينهم، عندئذ أمره الله تعالى أن يتوجه إلى بيت المقدس واستمر على ذلك نحو ستة عشر شهرا.

وكان يدعو ربه ويبتهل إليه أن تكون وجهته إلى الكعبة قبلة إبراهيم عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجه إلى بيت الله الحرام، فخطب الناس وأعلمهم بذلك، وكان أول صلاة: صلاة العصر، وفى هذا يقول الله تعالى «قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولنيك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون».

وعن البراء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال:

أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذى قد مات على القبلة قبل أن تحول رجالا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله: «وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم».

ومما يؤكد عاطفة المسلمين نحو القدس الشريف كواحد من أهم معالم الإسلام أنه قد

أسرى الله برسوله ﷺ إليه، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام دخل المسجد الأقصى وصلى فيه، ففى رواية أنس رضي الله عنه:

«....... ثم دخلت المسـجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءنى جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن» فقال جبريل:

«أخذت الفطرة» وقال الإمام النووى رحمه الله: المراد بالفطرة هنا: الإسلام والاستقامة.

وفى رواية ابن مسعود:.......... ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين ما بين قائم وراكع وسـاجد، ثم أذن مـؤذن، فأقيمت الصلاة، فقمنا صفوفا ننتظـر من يؤمنا، فأخذ بيدى جبريل، فقدمنى فصليت بهم.

وفـى رواية أبى أمامة – عنـد الطبرانى– ثم أقيمت الصـلاة، فتدافعوا حتى قدموا محمد ﷺ.

فصلى إماما بالأنبياء جميعا فى المسجد الأقصى. ولقد أطلع الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ فـى هذه الرحلة المباركة على نماذج لثواب الطائعين، وعقاب العاصيين. ومن هذه النماذج ما رآه من ثواب المجاهدين فى سبيل الله: «مر على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال لجبريل عليه السلام: ماهذا؟

قال: هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف الحسنة إلى سبعمائة ضعف،

وما أنفقوا من شئ فهو يخلفه وهو خيرا الرازقين»

وفى هذا المشـهد توضيح لمكانة الجهاد والمجاهدين، وفى هذا النموذج المحسـوس لمثوبـة الجهاد، تجيش فى نفوسـنا عواطف الإيمان، لتدفعنا لتطهير القدس الشـريف واسـترداده، وتطهير كل بقعة فى الوطن الإسـلامى، ونجاهد من أجل إعادة الحق إلى أصحابـه الذيـن أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة ١٩١.

وقد اختارت الإرادة الإلهية أن يكون الإسـراء برسـول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى، وصلا للحاضر بالماضى، وتقديرا لمنزلة هذه البقعة المباركة، التى عاشت عمرا كبيرا تنتشر على ظهرها الهداية، وتسـتقبل فى رحابها النبوات... وظل بيت المقدس مهبط الوحى الإلهى سنين عديدة.

فلما عصى اليهود أمر ربهم، وتنكروا لوحى السـماء، تحولت النبوة عنهم، وانتقلت الى ذرية إسماعيل، وتحولت بالتالى القيادة الروحية إلى خاتم الأنبياء والمسلمين. فانتقل الرسول ﷺ إلى هذه البقعة المباركة تقديرا لإخوانه السابقين من الأنبياء المرسلين، وإعلانا عن اكباره لهم وللدين الذى انتشـر نوره وسناه فى هذه البقاع المباركة؟ لأن الرسول ﷺ والمؤمنين، يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسـله، كما قال الله سـبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[1].

ولقد جمع الله تعالى له الرسـل السابقين، فاستقبلوه، وصلى بهم إماما وطبق الله فى ليلة الإسـراء والمعراج وفى رحاب المسـجد الأقصى ذلك العهد والميثاق الذى أبرمه منذ القدم مع الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضا ويمهد بعضهم للبعض، وأن يؤمنوا بمن سيرسله لهم وأن ينصروه، كما قال سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١﴾[2].

وهكذا كانت إمامة الرسـول ﷺ بالأنبياء، والمرسـلين فى هذا المكان المقدس إعلانا لختم رسالات السماء وأن رسالته خاتمة الرسالات، ودستورها السماوى وهو القرآن كلمة

---

(١) سورة البقرة ٢٨٥.

(٢) سورة آل عمران ٨١.

السماء الأخيرة، وأنه ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين وصلاة رسول الله ﷺ بالأنبياء لاينافيها كون الأنبياء كانوا قد ماتوا من قبل، لأن الذى أسرى هو الله الخالق القادر على كل شئ فهو القادر على تغيير بشرية الرسول ﷺ ليصلى بالأنبياء، وهو القادر على تغيير قانون برزخية الأنبياء السابقين ليصلى بهم.. فما أراده الله تعالى حدث، وبالكيفية التى أرادها رب العزة سبحانه وتعالى.

وفى هذا إعلان لعالمية الإسلام، وإعلان بأنه التشريع الخاتم والرسول الذى ختم الله به الأنبياء والمرسلين.

وأن حادث الإسراء والمعراج يضع فى أعناق المسلمين فى كل الأرض أمانة القدس الشريف، وأن التفريط فيه تفريط فى دين الله وسيسأل الله تعالى المسلمين عن هذه الأمانة إن فرطوا فى حقها أو تقاعسوا عن نصرتها وإعادتها.

فعلينا أن نوحد جهودنا، وألا نتفرق، لنكون بوحدتنا، قوة إسلامية لا يستهان بها، ولا تضعف فى المطالبة بحقوقها فطريق الوحدة ومناشدة القوة، هو طريق الحفاظ على مقدساتنا التى هى جزء من عقيدتنا وديننا ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أن القدس مسرى خاتم الأنبياء، وبوابة الأرض إلى السماء، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ولكم تعرض إلى العدوان والتخريب، فلماذا؟ وهو الموطن الإسلامى، ولو لا الصفة الإسلامية للقدس وفلسطين ما كانت لتعانى كل هذة المعاناة، «وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله..» إلا أنها مسلمة تحتل وتكثر المستوطنات اليهودية بها يوما بعد يوم؟! الآن شعبها مسلم يضطهد ويشرد ويتعرض للإبادة والتفكيك؟! هل أصبحت هذة سمة البلاد والشعوب الذين يتعرضون لتهاون النظام العالمى؟! فنرى أمثال المعاناة فى البوسنة والهرسك والشيشان.. أقول: إن الجهاد فرض عين فى الدفاع عن القدس، كما أنه فرض عين فى الدفاع عن البوسنة والهرسك والشيشان وكل وطن إسلامى على ظهر الأرض.

وفرض الجهاد للدفاع عن الأوطان ليست مقصورة على ساكنى هذه الأوطان المسلوبة

أو المنهوبة فحسب، بل إن فرضية الجهاد على جميع المسلمين فى كل الأرض، ومن هنا فإن كل جهاد والحكم الشرعى الذى قرره الفقه الإسلامى أن أعداء الإسلام إذا دخلوا بلدا يقيم فيه المسلمون فيجب الخروج لقتالهم ولا يجب لأحد أن يتخلى عن هذا الواجب، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ﴾[1]

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، إذا استنفرتم فانفروا» فإذا نادى الواجب المسلمين، لتحرير أوطانهم، ورفع العدوان عنها، واسترداد الحق، فإنه يجب عليهم أن يخفوا لتلبية هذا النداء وألا يتثاقلوا، قال الله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) ﴾[2] وفى سبيل إقرار الحياه الأمنة المستقرة، ونشر الإسلام فى ربوع الأمة يجب علينا ألانتفرق وألا نختلف، بل نتوحد فلا نتنازع ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[3] «وأن نتجمع ولا نتفرق» وأعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا. والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

❑❑❑

(١) سورة التوبة ١٢٣.

(٢) سورة التوبة ٣٨.

(٣) سورة الأنفال ٤٦.

التوصيات

لقد تكررت المآسى فى القدس الشريف من جراء انتهاك السلطات الإسرائيلية لحقوق هذه المدينة وحقوق الفلسطينيين، حيث تعددت المجازر البشرية، والاستمرار فى زيادة المستوطنات اليهودية، كما تعرضت إلى حوادث الإحراق والعدوان على الأنفس والأموال، واستهانت إسرائيل بالشرائع السماوية والمقدسات الدينية والحقوق الإنسانية، وكانت لها ممارسات إرهابية فى المنطقة، باشرت من خلالها كل وسائل العدوان والعربدة! ! ولما كانت القدس لها منزلتها الأثيرة فى قلوب المسلمين والمسيحين والعرب جميعا فهى مسرى رسول الله سيدنا محمد ﷺ، وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وعاش فيها المسيح علية السلام.. ولما كان السلام الشامل والدائم فى المنطقة رهنا بالتسوية ألعادلة والكامله، و استرداد الحق إلى أهله ولما كانت القدس البلد الوحيد الذى عانى الأمرين وكان الشعب الفلسطينى أكبر من تحمل فى سبيل الدفاع عن وطنه من معاناة وقتل وتشريد وضياع فإنى أعرض التوصيات التالية :ـ

١ – تأكيد الدعوة إلى استمرار صمود المجاهدين من أبناء فلسطين، دفاعا عن الحق والشرعية ووقوف الدول العربية والإسلامية مع هذا الشعب المظلوم استردادا لحقة، وانتصارا للشرعية و الحق.

٢ – الدعوة إلى توحيد القوى العربية والإسلامية والإنسانية عامة المحبة للسلام والواقفة بجانب العدل والحق، فلا يضيع الحق إلا بضعف أهله، ولا قوة لنا إلا فى وحدتنا، استجابة لقول الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾.

٣ – تحريك الرأى العام الدولى..بإظهار الحق ومنادة الضمير الإنسانى فى كل الأرض لمناصرة الحق ومناهضة الباطل والظلم.

٤ – مطالبة النظام العالمى بإيقاف الهجرة اليهودية، وإيقاف المستوطنات، ورد الحق لأهله حتى يسود السلام الدائم والشامل.

٥ – تضميد الجراح العربية والإسلامية بين الأشقاء العرب والمسلمين، حتى تتم وحدة الصف والهدف ،وتقوى الأمة فى مواجهة التحديات.

٦ – مطالبـة النظام العالمـى ومجلس الأمن والجمعية العامـة للأمم المتحدة وجامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسـلامى بتحقيق القرارات التى سـبق أن أبرمت مطالبة بحقوق القدس وفلسطين والشعب الفلسطينى.

٧ – دعوة الأمة أفرادا وجماعات وأمما وشـعوبا بتوثيق الصلة مع الله، وتأكيد تطبيق التعاليم الإسـلامية التى فيها انتصار لدين الله ممـا يترتب عليه انتصارنا مصداقا لقوله تعـالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾[1] وقولـه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾[2].

٨ – تشـكيل لجنـة دولية تمثل أهم الشـخصيات الدولية الذين يمكـن أن يتابعوا توصيـات هذه الندوة، حتى تأخذ طريقها إلى العمل الجاد، ولاتبقى كغيرها من الندوات حبرا على ورق.

وبالله التوفيق" وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أمين،،،،،

❑❑❑

(١) سورة محمد ٧.

(٢) سورة الحج ٤٠.

الدعوة إلى تزكية النفس

* تزكية النفس الإنسانية.
* بين الخوف والرجاء.
* بين وازع الدين ووازع الضمير.
* حقيقة الحياة.
* إنما الدنيا لأربعة نفر.
* مقاومة الإسلام للمخاوف و الأوهام.
* من مسئوليات الإنسان المسلم.
* الإنسان المسلم فى بوتقة الاختبارات.
* تهذيب الإسلام للنفس الإنسانية.

تزكية النفس الإنسانية

إن تكوين الشـخصية القويمة لا يسـتكمل ملامحة إلا بتزكيـة النفس وتنقية داخل الإنسان وأعماقة، قبل مظهره الخارجى. والإنسان الذى يعجز عن إصلاح نفسه التى بين جنبيه هو أكثر عجزا عن إصلاح نفوس الآخرين والتأثير فيهم، وللنفس البشرية دوافعها فـى السـلوك و تأثيرها على الكيان الخارجى، ولها وساوسـها المتحركة و هواجسـها الشائكة. التى تدفع إلى الانحراف والسوء و الفحشاء و المنكر ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(1).

و بالقـرآن الكريم تتزكى النفوس، فلا تعوقها الفتن، ولا تعكر حياتها الضلالة فتنتهى بالهلاك، وقد أمر الله تعالى رسـوله علية السـلام أن يذكر الناس بكتاب ربهم لئلا تبسل نفس وتهلك فقال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾(2).

ولا يتأتى للنفوس تزكية فى غير البيئة الإسـلامية الآمنة، المطبقة لشريعة الله، ففى رحابها تسـتقر النفس وتطمئن، فلا ترتاع من أحـد يمكر بها، ولا ترتاب من نفوس من حولهـا، وكم زعم البعـض أن فى بعض البيئات التى توغلت فـى المدينة المجردة عن الإسـلام رقة فى المعاملة و ملاحظة فى الأسـلوب والمنظر فخدع فى النفوس وظن فيها الحسـنى وليـس الأمر كما زعـم لأن صفاء النفس لا يتأتى من السـطح الخارجى لحياة الناس ومعاملاتهم، وإنما مبعثة من داخل القلب وأعماق النفس الإنسانية، وليس فى غير الكتاب والسنة والإيمان الصحيح طريق للتزكية، وقد امتن الله تعالى على عبادة إذ أرسل لهم رسـوله بكتاب قويم يزكيهم ويعلمهم فقال تعـالى ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾(3)

(1) سورة يوسف ٥٣.
(2) سورة الأنعام ٧٠.
(3) سورة الجمعة ٢.

ويتتبع الإسلام تزكية النفس فى مسار الحياة فيدفعها إلى الخير، ويعمل على ترقيتها من أمارة بالسوء إلى نفس لوامة ثم إلى نفس مطمئنة .لقد وضح القرآن حقيقة النفس البشرية فى ضعفها،وكيف تستهويها الفتنة بمظهرها الخلاب ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[1] لكن عندما يصحوا الضمير الدينى و يتحرك وازع الدين يخاف الإنسان مقام ربه، وعندئذ ينهى نفسه الأمارة بالسوء فيحظى بالرحمة والجنة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2]. وعندما ترتقى نفس الإنسان المسلم بالتزكية تلوم نفسها لا على ارتكاب الخطأ فحسب بل تلوم نفسها وإن اجتهدت فى الإحسان.

وبتلك النفس اللوامة ورد القسم فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[3].

و عندما ترتقى النفس بالتزكية و تطمئن بإيمانها و سلوكها تنتهى عما نهى الله و تأتمر بأمر الله، وحين تنتهى بها رحلة الحياة الدنيا تقبل على الله محبورة مستبشرة، ويقال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[4].

و من رحمة الله بعباده أنه وضح لهم طريق الخير ليتبعوه و طريق الشر ليتركوه وألهم كل نفس هذا الإحساس والبيان: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[5]

و فى مسار تزكية النفس يحرص الإسلام على تسليح النفس بذكر الله والوضوء والصلاة لينتصر على وساوس الشيطان و ينفض غطاء الكسل و عوامل التثبيط. ففيما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال: "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة، عليك ليل طويل فارقد

(١) يوسف ٥٣.
(٢) سورة النازعات (٤١،٤٠).
(٣) سورة القيامة (١، ٢).
(٤) سورة الفجر (٢٧،٣٠).
(٥) سورة الشمس (٧،١٠).

فإن استيقظ وذكر الله انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان)[1].

إن الكسل ظاهرة غير صحية فى حياة المسلم لأن خبث النفس تحطيم للشخصية فبمنظاره القاتم يتطلع المرء إلى من حوله فيسيء بهم الظنون، وحيث تقع نظراتة على محامدهم إذا بها فى عينه مثالب. إنه لا يرى فى الورود إلا الشوك، وانطباعاته عن دنيا الناس تأتى انعكاسا لما يتردد صداه فى نفسه فهى عارية عن الخير و الجمال فلا ترى فى الوجوه خيرا ولا جمالا هذه النفس التى عناها الشاعر بقوله:

وترى الشوك فى الورود و تعمى ... أن ترى فوقه الندى إكليلا
والذى نفسه بغير جمال ... لايرى فى الوجود شيئا جميلا

وما أحوج المجتمع الإنسانى إلى تزكيه النفس وإلى التضرع إلى الله أن يحفظها فى السر والعلانية فى اليقظة وفى النوم كما كان سلفنا يضرعون إلى الله ليحفظها.روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر أنه أمر رجلا إذا أخذ مضجعه أن يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها».

❑❑❑

(١) رواه البخارى.

بين الخوف والرجاء

يتشكل الوجدان الإسلامى المعتدل بين الخوف والرجاء حيث يتوازن بناء الشخصية فلا يؤدى به الرجاء إلى الإهمال ولا يؤدى به الخوف إلى اليأس: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾(1) وبين الخوف والرجاء يستيقظ الضمير الدينى محذرا لصاحبه من التردى فى مهاوى الفساد و التهلكة مرغبا له فى طريق الطاعة والنجاة، وبالرغبة والرهبة تنمو فى الأعماق عواطف جياشة وأحاسيس صادقة مبعثها صحة العقيدة وقوة الصلة بالله وهذه الصلة الوثيقة هى التى تضفى على حياته الرجاء فى رحمة الله وفى الوقت نفسه تحذره من عذابه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾(2) والاتجاه إلى الله بالرغبة والرهبة مع المسارعة فى الخيرات سبيل لفتح الأبواب وتحقيق الأمال لأنه لا يستقيم على ذلك إلا من صدقت نيته وصفت سريرته وأشرقت حياته بالإيمان.ولقد أخبر الله تعالى: عن زكريا عليه السلام حين طلب أن يهبه الله ولدا يكون نبيا من بعده فسارع هو وأهله فى الخيرات وفى الدعاء رغبا ورهبا، فأجاب الله دعاءهم وحقق رجاءهم، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾(3) فهذا نموذج عال يقدمه القرآن فيه تجلية لأثر الخوف والرجاء وما ينبغى أن يكون عليه المسلم فى دعائه واتجاهه إلى الله، وبين الخوف والرجاء دائرة إيمانية مشرقة تنطفىء فيها المخاوف النفسية وينبثق منها الأمن الروحى حيث يكف الإنسان نفسه عن كل ما يغضب الله خوفا منه ويسارع إلى مرضاته

(1) سورة يوسف (٨٧).

(2) سورة الإسراء (٥٧).

(3) سورة الأنبياء (٨٩، ٩٠).

رجاء رحمته وعندئذ يظل مستثمرا ثواب الله وعقابه وغفرانه وعذابه. ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾(1) وقال تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾(2) وكما دعا القرآن إلى الخوف والرجاء ففى السنة الشريفة فيض غامر يستهدى به المسلم فى حياته ويفتح أمامه باب الأمل والرجاء فى رحمة الله فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال الله عز وجل: «سبقت رحمتى غضبى» وفيما روى أيضا عن عمر بن الخطاب أنه قال: " قدم على رسول الله ﷺ سبى فإذا امرأة من السبى، تبكى إذ وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله ﷺ أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟ قلنا: لاوالله وهى تقدر على أن لا تطرحه فقال رسول الله ﷺ «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» وحتى لا يتكل الناس على الرحمة وجانب الرجاء نجد أن الرسول ﷺ يخبر عن وقوع العذاب من أمور قد يستهين البعض بها روى الإمام مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها تأكل من خشاش الأرض» وتؤكد السنة المشرفة حقيقة الخوف والرجاء ومدى ما عند الله من العقوبة و الرحمة حتى لا يتسرب الغرور أو اليأس إلى داخل النفس الإنسانية. روى مسلم بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»(3) وترسم السنة صورة كاملة الملامح لحياة الإنسان اليومية يكتنفها الخوف والرجاء فى حركته وسكونه فى يقظته و نومه ففيما رواه مسلم عن سعد بن عبيدة: حدثنى البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أخذت مضجعك

---

(1) سورة الحجر ٤٩، ٥٠.

(2) سورة غافر ١،٣.

(3) رواه مسلم.

فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل اللهم إنى أسلمت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت»[1] وليس فى عنصر الخوف من الله ما يدعى أعداء الإسلام فإن الخوف صمام أمن وعصمة من الزلل. والتربية فى أمس الحاجة إليه. ثم إنه ليس خوفا من مخلوق وإنما خوف من الله. يقول السلف: ينبغى تغليب الخوف على الرجاء ما دام الإنسان يغدو ويروح فى الدنيا، فإذا خرج منها حسن به الرجاء على الخوف عند الله، ويرى البعض، إذا غلب الأمن من عذاب الله فالخوف أفضل وإذا غلب اليأس فالرجاء أفضل. ما أروع ما قاله ابن القيم فى هذا: القلب فى يد الله عز وجل بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاة فمتى سلم الرأس و الجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل طائر وكاسر.

❑❑❑

(١) رواه مسلم.

بين وازع الدين ووازع الضمير

وللوازع الدينى طابعه الواضح فىحياة الأفراد والجماعات والأمم والشعوب، فصوت الحق ينبعث منه مدويا فى الكيان الإنسانى له تأثيره القوى،وله عمقه وفاعليته فى الواقع العملى للحياة والأحياء، ولقد تعددت الأشكال التطبيقية فى سائر المجتمعات البشرية واختلفت الأساليب، وتنوعت المناهج وتضاربت الآراء لدى المجتمعات التى فقدت عنصر الوازع الدينى ولم تتخذ الإسلام منهجا للحياة، حتى وإن كان أفراد المجتمع مسلمين فهناك فرق واسع بين جماعة إسلامية أخذت الإسلام عقيدة وسلوكا وتطبيقا وبين جماعة إسلامية أخرى أخذت من الدين اسمه ومن الإسلام رسمه ولم تعمل بأصوله، ولم تطبق منهجه.

فالأولى: تمتعت بالأمن والاستقرار لأنها تقوم برسالتها فى وضوح من الأمر وأحكمت خطاها المطمئنة على درب النور وعلى الطريق المستقيم، ووجدت فى شريعة الله كل ما تحتاج إليه من قوانين تضبط السلوك والمعاملات، قوانين ثابتة لاتتغير ولا تتبدل إنها قوانين ربانية نتائجها مضمونة، وأما الثانية: فهى فى متاهات الحياة تتقلب كل يوم مع أنظمة حديثة وقوانين مستوردة، هى من صنع العقل البشرى ووليدة أمشاج من تجارب عاشت على مسار الزمن بين مد وجزر وقبول ورفض، وبينما تمسك بنظام إذا بها يتبين لها منه الخطأ والقصور فتعدل عنه وتذهب إلى غيره ثم تتركه وهكذا. لا استقرار ولا ثبات . وطالما ارتفعت أصوات المصلحين وجلجلت نداءات الدعاة توجيها إلى الحق ومقاومة للمنكر والشر ولكن بلا صدى. ولقد حاولت المدنية الحديثة أن تضع الضمير دافعا ووازعا وتصوره كذالك زعما وتلبيسا للأمور، وراح البعض مرددا: إنه يفعل كذا إرضاء لضميره. ومحاولة اتخاذ الضمير من ضوابط العمل الإنسانى، ومحاولة جعله هدفا أو غاية أو الصدور عما يمليه على الناس، كل ذلك نزوع إلى طريق الانحراف وإهدار لقيم نبيلة وطمس لمعالم لا يصل إليها صوت الضمير. وأحيانا كثيرة يتجاهلها ويجهلها ويتناساها وينساها، ومن جانب آخر فإن ما يملية الضمير الإنسانى ليس واحدا فى

كل الأمور وليس متفقا مع جميع البيئات وليس متحدا لدى جميع الأفراد والجماعات فالذين يحاولون أن يتخذوا إرضاء الضمير غاية وهدفا هم يفرون من الحقيقة الواقعة ومن الحق الثابت ومن قوانين الشريعة المستقرة التى لا تتغير إلى ما ليس ثابتا ولا مستقرا وهو الضمير، لأنه يتغير من بيئة لأخرى و يختلف من جماعة إلى جماعة أخرى بل وأحيانا يختلف بين الجماعة الواحدة من فرد لآخر وتحت ستار إرضاء الضمير قد تحدث المخالفة أو التفريط فى الواجب ويحاول البعض إقناع الآخرين بأنه أرضى ضميره.... بل وقد يقنع نفسه بأنه راضى الضمير. مبررا الأمور على حسب ما يحب ومفسرا ظواهر الأشياء على حسب هواه. وعندما يتخذ الإنسان الهوى طريقا للعقل ـ وحده ـ هاديا، ويبتعد عن هدى ربه يضل ضلالا مبينا، فلا هداية إلا هداية الله ولا حكم إلا لشريعة الله ولا وازع ولا رادع إلا من الإسلام، أما الذين يتخذون الضمير. ويسلمون حياتهم إلى هوى النفس أو حكم العقل، فهم بعيدون عن روح الإسلام. وعن جوهر العقيدة الصحيحة، يقول الله تعالى محددا الاتجاه الحق فى شريعته وهو الذى يجب اتباعه و البعد عن الهوى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾(١).

وأما عن وازع الدين، فإنه يصدر عن حكم الله، وفى رحابه يقدم الإنسان على العمل إرضاء لله وابتغاء مرضاته وطاعة له.. ووازع الدين تربيه العقيدة وتثمره وتؤصله الشريعة وتنميه وفى ظله يتم صلاح القلب الذى يترتب عليه صلاح كل عمل يقوم به الإنسان كما

(١) سورة الجاثية ١٨، ٢٣.

جاء الحديث..."ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" وقد نطلق عليه اسم (الدينى)، ولذا فمن الواجب توضيح الفــرق بينه وبين الضمير العام الذى ســبق الكلام عنه وأنه يصــدر عن الهوى، فالوازع الدينى أو مايشــار إليه بالضمير الدينى أحيانا هو الذى لا يصدر فى حسه وفعله إلا عن العقيدة والشــريعة نابعا من القلب الذى هو محل النية و التصديق وتبرهن عليه الأعمال الصالحة التى مبعثها شــريعة الله. ومن هنا كان للقلب الصالح الســليم إحساسه الصادق وحاســته المرهفة التى أشار إليها الرســول صلوات الله وسلامه عليه فى قوله: (استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك). وأشار أيضا فى قوله ﷺ: (البر حسن الخلق والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)[1].

ونحــن إذا انتقلنــا إلى واقع الحياة لنــرى بعض الأمثلة والنمــاذج التطبيقية ندرك الفــرق واضحا بــين وازع الدين وبين ما يدعيه البعض من إرضــاء الضمير. فى كثير من المجتمعات عند وقوع عقوبة من العقوبات أو تطبيق بعض القوانين يستطيع بعض الناس أن يفلت من القانون أو يحاول التهرب منه، خشــية الوقوع تحت طائلة العقاب، وربما إذا نوقش إنســان أحدث مخالفة من المخالفات أو قصر فى واجب من الواجبات أجاب بأنــه قد قام بما قام به عــن اقتناع،وأنه قد أرضى بذلك ضميره، وقد لا يكون على حق ولكنه يحاول تبرير الموقف بما يتفق مع هواه وبما يتماشــى مع ما يريد بغض النظر عن أى اعتبــار آخــر. فأين هذا الضمير من وازع الدين الذى كان يدفع البعض حين يرتكب ذنبــا ليأخذ عقابه ويطلــب إقامة الحد عليه. عن عبد الله بن بريــدة عن أبيه أن ماعز ابن مالك الأسلمى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى . فلما كان من الغد أتاه فقال: يارســول الله إنى قد زنيت فرده الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه، فقال: أتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا؟ قالوا: ما نعلمه إلا وفى العقل من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة فأرســل إليهم أيضا

(١) رواه مسلم.

فسأل عنه. فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم. قال: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إنى قد زنيت فطهرنى، وإنما ردها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لم تردنى لعلك أن تردنى كما رددت ماعزا فوالله إنى لحبلى قال إما لا فاذهبى حتى تلدى، فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة قالت هذا قد ولدته قال اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه، فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله ﷺ سبه إياها فقال: مهلا يا خالد فو الذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت[1].

وحياة المجتمعات البشرية مليئة بنماذج تطبيقية وأمثلة واقعية يتضح من خلالها الفرق الشاسع بين سلطة الدين ووازع الدين وبين السلطة القانونية.

ومن الأمثلة كذلك القوانين الضريبية التى تسنها بعض البلاد، وبعض المجتمعات على كثير من الناس من أصحاب الأعمال والأموال، وعلى بعض المؤسسات والشركات والمصانع وغير ذلك.. مما يلتزم به بعض الأفراد وبعض الجماعات ولكننا كثيرا ما نلاحظ أن الكثير من الناس – أفرادا وجماعات – يتهربون من تلك الضرائب ويحاولون أن يتحايلوا على تلك القوانين وليس هناك من ضمير يدفع ولا رقيب من داخل النفس يحاسب.

فأين هذا من وازع الدين ومن سلطان الشريعة وأثرها ودافعها، هذا الوازع الدينى الذى يدفع الإنسان المسلم إلى أن يدفع زكاة ماله طيبة بها نفسه، مسارعا بإعطاء أصحاب الحقوق والمحتاجين، بل ومؤديا أكثر مما وجب عليه من المال صدقة زائدة وعطاء زائدا وإنفاقا فى سبيل الله. ففى جو القوانين الوضعية وفى مسايرة الضمير الدنيوى المختلف يفتقد عنصر المراقبة فيستخفى الناس من بعضهم لئلا ينكر أحد عليهم

(١) رواه مسلم.

لكنهم لا يســتخفون من الله كما قال تعالى ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾[1] وأما في ظــل الــوازع الديني فإن المؤمنين المخلصين يراقبون ربهم في كل أعمالهم ســرا وعلانية لا يعنيهــم أن يراهــم الناس لأنهم لا يراءون الناس وإنمــا يعنيهم رضا الله تعالى وحده، فهم يزيدون في أعمالهم وينفقون ســرا ويبادرون إلى كل خير، ويسارعون إلى كل مكرمة شعارهم قوله تعالى ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[2].

❑❑❑

(١) سورة النساء ١٠٨.

(٢) سورة التوبة ١٠٥.

حقيقة الحياة

تختلف نظرة الناس إلى الحياة باختلاف مطامعهم فيها. وما يطمحون إليه من أموال أو أولاد، ومن منصب أو جاه، ومن قوة وعافية.

وتتوالى خطاهم فى دروب الحياة وتشرئب أعناقهم متطلعة وتشخص أبصارهم.. وهكذا كل ينظر إلى الحياة من زاويته الخاصة وتتعلق آماله بما ليس فى يديه. ولا تتطلع إلى ما فى يديه فإذا رأى غيره مثلا أكثر منه فى جانب من جوانبها رغب أن يكون مثله وإذا صار مثله رغب فى أن يكون هو أعظم من ذلك، وتظل تتوارد الآمال وتتضاعف دون انتهاء.

والطموح الأمين النزيه لا حرج فيه ما دامت طرقه مشروعة ووسائله كريمة.. أما حين يكون ضربا من الطمع الفاحش.. وتطلعا ممقوتا إلى ما فضل الله به بعض الناس على بعض، وبما قسمه بينهم فى أمر معاشهم، فليس ذلك من الإسلام فى شئ ولا أثر له فى حقيقة الحياة إلا الحقد الذى يتولد منه وإلا الحسرة التى يورثها..

ومن هنا كانت تعاليم الإسلام فى هذا الجانب حاسمة وواضحة ونظرة الإنسان إلى من هو أقل منه أجدى فى الاعتبار وفى باب الشكر من نظرته إلى من هو فوقه، فنظرته إلى من هو فوقه تورثه الندم والتحسر وربما يتولد عنها الحقد واستقلال النعمة وعدم شكر المنعم.. يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه «لاتنظروا إلى من هو فوقكم وانظروا إلى من هو أسفل منكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم».

والحديث الشريف بهذا التوجيه الحكيم يعالج جانبا نفسيا هاما له أثره على حقيقة الحياة فى كل بيئة وفى كل مجتمع وفى كل مجال من مجالات الحياة.

ولا يمكن لمن تعمق فى مغزاه أن يشم منه من قريب أو من بعيد أن فيه دعوة لقعود الهمة أو الرضا بأدنى الأمور وأقل الحياة. كلا.. بل إن فيه توجيها إلى ما يجب على الإنسان المسلم حيال ما أنعم الله تعالى به عليه من نعم سابغة.. وآلاء ظاهرة وباطنة:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾[1] إن واجب الإنسان المسلم أن يقدر النعم التى أنعم الله بها عليه وأن يشكر ربه عليها آناء الليل وأطراف النهار، وأولها وأجلها نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

ولقد جاء الأمر الإلهى للجماعة المؤمنة واضحا وكاشفا لهم ما تكون به حقيقة الحياة وما يسعدهم وما يُحييهم..

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾[2] ففى هذه الآيات نادى الله تعالى المؤمنين موجها أمره إليهم بالاستجابة لله وللرسول، وذلك بالطاعة فيجب على الذين آمنوا أن يطيعوا الله والرسول، ونلاحظ فى التعبير القرآنى الحكيم أنه أفرد الضمير فى قوله إذا دعاكم ولم يأت بضمير التثنية الذى يفيد دعوة الله ودعوة الرسول ﷺ إشارة إلى أن طاعة الله فى طاعة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[3]، إنه أمر بالاستجابة والطاعة إن دعاهم لما يحييهم، فإن فى الدين حياة النفوس. وحياة القلوب فإن القلب يحيا بمعرفة أمور دينه ويموت بالجهل بها.

وقيل: المراد القرآن الكريم فإن فيه النجاة والبقاء والحياة، ثم يقول سبحانه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾[4]. وقال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر. وبين الكافر وبين الإيمان فهو سبحانه يطلع على ما تكنه القلوب.

---

(١) سورة إبراهيم ٣٤.

(٢) سورة الأنفال ٢٤، ٢٥.

(٣) سورة النساء ٨٠.

(٤) سورة الأنفال ٢٤.

وفى هذه الآية الكريمة حض وتوجيه من الله سبحانه إلى أن يسارعوا إلى إخلاص القلوب وتصفيتها.. قبل أن يحول الله بين الإنسان وبين قلبه بالموت.

أو أن الآيه تصوير لقدرة الله تعالى على العبد وعلى قلبه فيحول بين العبد وبين الكفر إن أراد له السعادة ويحول بينه وبين الإيمان إن أراد له الشقاء..

وأنه إليه تحشرون.. فيجازى كل إنسان بما قدمته يداه إن خيرا فخير وإن شرا فشر

وفيما رواه الإمام أحمد بسنده أن رسول الله ﷺ قال: (إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفها كيف شاء، ثم قال ﷺ «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك»..

ومن دعاء رسول الله ﷺ الذى كان يكثر منه (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك) ولطالما ذكر القرآن الكريم الأفراد والجماعات بنعم الله عليهم، فهو يذكرهم بما كانوا عليه ليكون فى هذا زيادة اليقين بخير ما يدعوهم إليه وبما فيه حياتهم وسعادتهم فبعد أن ناداهم وأمرهم أن يستجيبوا لله ولرسوله وبعد أن حذرهم وأنذرهم من الوقوع فى الفتنة أخذ يذكرهم بما كانوا عليه من قله فى العدد وضعف فى الأرض وخوف من العدو .

فقد كانوا فى بادئ الأمر قلة مستضعفة يخافون أن يتخطفهم الناس من كفار قريش، أو من عداهم، فتداركتهم عناية ربهم فآواهم إلى المدينة فتحصنوا عن أعدائهم وأيدهم بنصر من عنده وأمدهم بالملائكة ورزقهم من الطيبات عن طريق الغنائم رجاء أن يشكروا ربهم الذى وهبهم هذه النعم التى لا تحصى.

وهكذا تتساوبق المبادئ الإسلاميه الراشدة موجهة أفراد الأمة وجماعاتها إلى حقيقة الحياة..

إنها توجههم إلى حقيقتها بأساليب محكمة وأمثلة قوية واقعية راسمة لهم منهج الحياة التى يسعد فيها الفرد والمجتمع، إنها حياة تقوم حقيقتها أولا وقبل كل شئ

علـــى الإيمان والعمل، وعلى اليقين المطلق بواهب النعم وخالق الكون، ومن منطلق هذا اليقين يتجه أبناء الحياة إلى كل دروبها وليس على عينهم عصابة . ولا فى قلبهم غشاوة بل يتجـهون مخلصين آمنين..

❑❑❑

إنما الدنيا لأربعه نفر

المسلم كيس فطن يدرك حقيقة الحياة ويعرف موقعه منها ثم يصرف أموره وأحواله بما يتواءم مع شريعة الله، ولا يختلف مع الدين .. ولا يتصادم مع نظم الحياة الجادة المستقيمة.

والإنسان المسلم فى هذه الحياة لا يعيش لنفسه فقط ولكنه يعيش متعاونا مع الغير و الغير متعاون معه فهو اجتماعى بطبعه.

والناس فى هذه الحياة يحتاج بعضهم إلى بعض، ومن قصور التفكير أن يظن البعض أن غيره المحتاج إليه وأنه غير محتاج إلى أحد .

كيف ؟ وطبيعة الحياة أخذ وعطاء، والتكوين الإلهى للجماعات البشرية على ظهر هذه الحياة أنهم درجات بعضهم فوق بعض ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ .

وهذه الحكمة الإلهية بها تنهض الجماعات، ويكدح الناس فى الحياة وتعمر بهم الأرض.

وكما أن الإنسان محتاج إلى عمل يكسب من ورائه ومحتاج إلى مال ينفق منه ومحتاج إلى صاحب العمل، فإن صاحب المال محتاج لهذا العامل، ولولا هذا العامل ما كان لصاحب العمل ماله ولا تحصيل ربحه، ولا إدارة عمله الذى يدر عليه هذا الربح .

بل إن الإنسان كثيرا ما تعترضه مواقف يحتاج فيها إلى أبسط الأعمال وأقل المهن التى لا ينظر الناس إليها بعين الإكبار والتقدير بل ربما ينظرون إلى بعض الأعمال البسيطة والمهن غير البراقة نظرة غير كريمة .

ولكنهم فى الحقيقة إذا راجعوا أنفسهم وقت حاجاتهم الملحة إلى هذه المهن وتلك الأعمال عرفوا قيمتها وأدركوا أهميتها، وعلى كل إنسان أن يدرك دوره فى الحياة والطريقة المثلى لتسيير دنياه .

وضروب الناس متفاوتة فى الدنيا وحظوظهم متنوعة فمنهم من أوتى حظا من العلم والمال:

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهمو لم يبن ملك على جهل وإقلال

ومن الناس من أوتى علما ولم يؤت مالا. ومنهم من أوتى مالا ولم يؤت علما. ومنهم من لم يؤت مالا ولا علما، إنهم أربعة نفر.. وقد جاء تفصيلهم فى السنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . ففيما أخرجه الترمذى : عن أبى كبشة الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة أقسم عليهن . وأحدثكم حديثا فاحفظوه: ما نقص مال من صدقة ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا ولافتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر)..

وزاد فى رواية. (وما تواضع عبد الله إلا رفعه لله . وأحدثكم حديثا فاحفظوه، إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فى ماله ربه ويصل به رحمه ويعلم أن لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل . وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول: لو أن لى مالا لعملت عمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يخبط فى ماله بغير علم، لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله حقا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما، يقول: لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته ووزرهما سواء).

والناس فى حياتهم أحد فريقين:

فريق: هم طلاب دنيا يجعلونها همهم ومنتهى مقصدهم فهم يبحثون عنها فى كل الدروب ويجرون وراءها فى كل اتجاه، وربما كانوا عنها بعيدين وكانت بعيدة، وكلما جروا خلفها جرت هى أمامهم فلا يلحقونها ولا ينالون منها إلا ما قسمه الله لهم، وفريق آخر هم طلاب الآخرة جعلوها همهم وشغلهم الشاغل حتى وهم فى أعمالهم الدنيوية جعلوها خالصة نقية لم تشبها شائبة ما، أولئك أغنى الله قلوبهم وأتتهم الدنيا راغمة.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهى راغمة . ومن كانت الدنيا همه جعل الله

فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له فلا يمسى إلا فقيرا ولا يصبح إلا فقيرا، وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه، بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع)(١)

وقال عمر رضى الله عنه: ما كانت الدنيا هم رجل إلا لزم قلبه أربع خصال: فقر لا يدرك غناه، وهم لا ينقضى مداه، وشغل لا ينفد أوله، وأمل لا يبلغ منتهاه.

وتلك حقيقة لها من واقع الحياة أمثلة كثيرة ونماذج وافرة فنحن نشاهد من كانت الدنيا همه فى فقر دائم.. وربما تتساءل - قارئى العزيز - كيف يتأتى هذا وهو غنى؟ وكيف يكون فى فقر وهو ذو مال؟ ولكنك حين تلقى نظرة عابرة على صفحة المجتمعات الإنسانية ترى من الناس من يريد أن يضيف إلى ماله أموالا ويحرص على عدم نقصانها ويجتهد فى زيادتها. من أجل هذا فهو لا ينفق منها وإنما يكنزها ولا يتمتع بها وإنما يضن بها على نفسه وأهله ورحمه والفقراء والمحتاجين فهو فى فقر بيد أن المال بين يديه.

وأما الهم الذى لا ينقضى فهو فى شغل شاغل وراء جمع ثروته وما يخشى أن يضيع منها وما يجب أن يضاف إليها لتنمو، وما تشابك به مصالحه مع مشاغله ومتاعبه وهكذا.. فهو فى شغل لا ينفد ووراء أمل لا يبلغ مداه لأن طالب الدنيا لا يشبع، ولو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى أن يكون له الثانى ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب. تلك حقيقة لا يمارى فيها أولو الألباب. ولكن ليس معنى هذا أن الإسلام لا يدعو إلى السعى والعمل. لا.. بل إن الإسلام هو دين العمل والسعى والتمتع بطيبات الحياة الدنيا.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قلنا يا رسول الله مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا فى الدنيا وكانت الآخرة كأنها رأى عين، وإذا خرجنا من عندك فعافسنا أهلينا وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا فقال عليه الصلاة والسلام: (لو تدومون على حالكم عندى لزارتكم الملائكة فى بيوتكم، ولصافحتكم فى طرقكم، ولو لم تذنبوا لذهب الله

(١) أخرجه الترمذى.

بكم ولجاء بخلق يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم. ساعة وساعة) والحديث يدعو آخره إلى التوبة وليس إلى الاستهانة بالذنب، فليس معنى، لو لم تذنبوا.. فتح طريق الذنب لا، وإنما المراد فتح باب التوبة، وإعطاء الفرصة والأمل لمن ضلوا أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يتوبوا إلى الله، وأن يكونوا على اتصال دائم به سبحانه وتعالى .هذا مع سعيهم فى الحياة وكدهم وجدهم وتعبهم ونصبهم فهم يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا ويعملون لآخرتهم كأنهم يموتون غدا.

ومن كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه، لاتكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الأمل ويقول فى الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها بعمل الراغبين . إن أعطى منها لم يشبع وإن منع لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتى ويتمنى الزيادة فيما بقى .ينهى ولا ينتهى ويأمر بما لا يأتى يحب الصالحين ولا يعمل أعمالهم ويبغض المسيئين وهو منهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، ويقيم على ما يكره الموت له، إن سقم ظل نادما وإن صح أمن لاهيا، يعجب نفسه إذا عوفى ويقنط إذا ابتلى،تغلبه نفسه على ما يظن ولا يغلبها على ما يستيقن . ولا يثق من الرزق بما ضمن له ولا يعمل من العمل بما فرض عليه إن استغنى بطر وفتن، وإن افتقر قنط وحزن ا.هـ . تلك طبيعة الإنسان وهى فى حاجة دائمة إلى إصلاح وتقويم وتهذيب وصقل وتسليم بالإيمان بالله واليوم الآخر .

❑❑❑

مقاومة الإسلام للمخاوف والأوهام

حرص الإسلام على تحرير الإنسان المسلم، لئلا تستبد به الأباطيل والترهات، فليس لأحد أن يخضع إلا لله فهو صاحب الخلق والتدبير، وهو رب السموات والأرض وبيده ملكوت كل شئ، وهو سبحانه الذى يجير ولا يجار عليه .. فكيف يذهب البعض إلى عبادة غيره ؟ قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[1].

ولقد جاءت تعاليم الإسلام فى غاية اليسر، وفى منتهى الوضوح، وخلصت الإنسان من العادات السيئة التى تشوه حياته الدينية، كما خلصته من الأباطيل والأوهام التى تراكمت على العقل البشرى ضاربة بجذورها فى النفس منذ أيام الجاهلية المظلمة، التى تخبط المجتمع الوثنى بين دروبها الضيقة وأحوالها الخانقة.

وحمل الإسلام على الأوهام والضلالات وتتبعها فى كل منعطفاتها وزواياها ليحرر الضمير الإنسانى من كل الأساطير.

ونقى الإسلام عقيدة الإنسان المسلم من الكهانة وغيرها من المعتقدات الباطلة والعادات السيئة التى تسربت منها الخرافات بشكل فاضح، جعل النفس الإنسانية ضعيفة لا تقوى على شىء، وتظل حائرة بين ضباب الوهم والخيال. تقدم رجلا وتؤخر أخرى. وكما دعا الإسلام إلى تحرير النفس الإنسانية من الخضوع لغير الله وتحريرها من العادات السيئة والتقاليد المرذولة والخرافات المتفشية، فإنه دعا المسلم إلى تحرير نفسه من الخوف والقلق متتبعا أسباب الخوف ودواعيه ومجالاته ودوافعه ومبعث هذا الخوف قد يكون حرصا على الحياة أو قلقا على طلب الرزق أو طلبا لجاه أو منصب فيظل شبح

(١) سورة المؤمنون ٨٤، ٨٩.

الخوف يطارد الإنسان فى خطى حائرة على الإقدام والإحجام، ويدفعه القلق على طلب الرزق إلى الغش والرشوة والاختلاس، فتستعبده المادة ويدفعه التطلع إلى الجاه أو المنصب إلى المداهنة والزلفى إلى الناس.

ونقى الإسلام حياة الناس من كل الأوهام والخرافات وأبان أن طلب الحياة أو الرزق أو المنصب، لا يكون من مخلوق وإنما يكون من الخالق الذى بيده ملكوت كل شئ، وهو على كل شئ قدير.

فأما بالنسبة للحياة، فقد جعل الله لكل نفس ميقات - أجل - لا تستأخر عنه ساعة، ولا تستقدم عنه أخرى، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾(1) فإذا جاء ميعاد هذا الأجل فلا يدفعه حرص، ولا يغنى عنه حذر ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾(2) وأما بالنسبة للرزق، فقد تكفل الله به، وهو الرزاق ذو القوة المتين، قال الله تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾(3) والرزق محدد، قدره الله وحدده وقد أقسم الله تعالى على أنه حق واقع حيث قال سبحانه: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾(4). وناهض الإسلام المزاعم الباطلة كاعتقاد أن للمرض عدوى بطبعه من غير فعل الله، وكالطير حيث كانوا ينفرون الطيور والظباء، فإن اتجهت يمينا مضوا فى حوائجهم، وإن اتجهت يسارا رجعوا وتشاءموا، ومن ذلك تأخيرهم تحريم المحرم إلى صفر وهو النسئ، ورفض الإسلام كل ذلك، قال عليه الصلاه والسلام : (لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هامة)(5) كما طهر الإسلام العقيدة من الكهانة، وما يشبهها ـ حديثا ـ كضرب الحصى والرمل وقراءة الفنجان وغير ذلك من الاعتقادات الباطلة.

---

(١) سورة آل عمران ١٤٥.
(٢) سورة النساء ٧٨.
(٣) سورة هود ٦.
(٤) سورة الذاريات ٢٢، ٢٣.
(٥) رواه مسلم.

وقـــد وضح الله تعالى أنـــه بيده وحده الأمر كله من خير أو شـــر ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾[1] وإذا أراد الله نصـــرة إنســـان فلا يمكن أن يغلب وإن أراد خذلانه فلا يتأتى لأحد أن ينصره ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾[2] هـــذا وإن حب الدنيا، والتعلق بأذيالها والخوف على الحياة أو الرزق، هذه الأمور تؤدى بالإنســـان إلى الضعف وضياع الشخصية، وقد نبه رسول الله ﷺ على ذلك حين قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكـــم كمـــا تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: أو مـــن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتـــم يومئـــذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء الســـيل، ولينزعن الله من صـــدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[3].

❑❑❑

(١) سورة يونس (١٠٧).

(٢) سورة آل عمران (١٦٠).

(٣) رواه أحمد وأبو داود.

من مسئوليات الإنسان المسلم

قدر الإسلام قيمة الوقت ونبه إلى أهميته، والمتتبع للنظم الإسلامية يدرك إلى أى مدى كان حفاظ الإسـلام على الوقت، وكانت حيطته البالغة . بحيث لا يتعرض للتهديد أو الضياع، فقد حدد الإسلام مواقيت زمنية لعباداته وكلها تدل على النظام المحكم الدقيق وعلى احترام الوقت وتنسـيق فتراته، فالفروض الخمسة أوقاتها من الفجر إلى الظهر إلى العصر إلى المغرب إلى العشـاء. وكلها أوقات تحددت بالوحى الإلهى ولها بداية ونهاية بحيث إذا انتهى وقت من هذه الأوقات لا تقع العبادة فيها أداء . وإنما تكون قضاء لأن وقتها المحدد لها شرعا قد فات.

وللصيام وقته الزمنى العام المحدد ووقته اليومى الخاص المحدد من الفجر إلى غروب الشـمس. وللزكاة وقتها كذلك ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ ولزكاة المال وقتها عندما يحـول على المال الحـول وهكذا.. ولفريضة الحج ميقاتها الزمنى المحدد بشـوال وذى القعدة وذى الحجة . والإنسـان المسلم مسـئول عن الوقت مسئوليته عن كل شئ آخر، ومحاسـب عليه، كأى نعمة أخرى من النعم الإلهية التى منحها الله تعالى إياه، ففيما رواه الترمذى: يقول رسول الله ﷺ: «لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيه».

إن العمر الذى يعيشـه الإنسـان على ظهر هذه الحياة مسئول عنه، إنه مسئول عن أيامه وأعوامه وعن سـائر أوقاته فيم أفنى هـذه الأوقات، هل أفناها فى الطاعة أم فى المعصيـة، هـل أفناها فى العمل الجاد، والسـعى على المعاش ومـا ينفعه وينفع الناس والمجتمـع أم لا . إن كثيرا من النـاس إذا ذهبوا إلى أعمالهم أو مصالحهم يؤدون بعض العمـل، ويتوقفـون عن أعمال كثيرة مطلـوب منهم أداؤها وتوقفهم هـذا وإهمالهم، قد يكـون بسـبب، وقد يكون بلا سـبب . فمنهم من يتوقف عن العمـل الواجب عليه فى مصلحته – موقع عمله – بسـبب أنه غير منسـجم مع رئيسه فى العمل أو أنه على غير

وفـاق مع بعض رفاقـه وزملائه. فإذا ما ذهب إليه بعـض أصحاب الحاجات والمصالح الذين ينتظرون إنجازها لم يجبهم الإجابة الشافية وقد يرجئهم إلى الغد أو ما بعده. وقد يحيلهم إلى غيره.. وهكذا من الأسـاليب والحيـل التى يصرف بها صاحب المصلحة أو الحاجـة دون جدوى، وهذا الضـرب من الناس يقتل وقتا يتقاضى عليه أجرا فى الدنيا وهـذا الأجر أو ذلك المال الذى يتقاضـاه غير حلال، وليس مالا طيبا بل إنه كمن يأكل أموال الناس بالباطل وهو إن خفى أمره على العباد فلا يخفى على رب العباد الذى يعلم السر وأخفى... والذى يعلم ما تبدون وما تكتمون.

وليـس عدم انسـجامه أو وفاقه مع الآخرين مبررا لـه لأن يؤخر عمله، ويهمل فى واجبه، ويضيع وقتا ثمينا من الحياة. وهناك نوع آخر من الناس يقتل الوقت وينصرف عن عمل الواجب. بسـبب أنه يسـعى لمصلحة خاصة. أو أنه كان فى مهمة خاصة به. ومثل هذا النوع وإن كان قد شـغل الوقت بعمل إلا أنه عمل فى غير وقته المشـروع له، فلا يصح أن تطغى المصالح الشخصية على المصلحة العامة أو يشغل وقت المصلحة العامة لمصلحة شخصية. ففى هذا ضياع لحقوق المجتمع وحقوق غيره من الناس، وهذا الضرب من الناس، يمكن أن نسـميه (سـارق الوقت) أو نسـميه : (المختلس المقنع) نعم إنه سـارق الوقت، والسرقة ليسـت خاصة بالمال أو المتاع ولكنها تشمل الوقت كذلك، لأنه اختلس من أوقات العمل، ومن وقت المصلحة العامة، واسـتغل ذلك لنفسـه وشخصه، ومثله كمثل السـارق والمختلس تماما بتمام. وهناك نوع آخر من الناس يتوقف عن عمله ويهمله لا لسبب من الأسباب إلا الكسل والخمول، والركون إلى الراحة والدعة، ومحاولة قضاء وقت العمل فى احتساء ما تشتهيه نفسه من المشروبات أو مطالعة ما يستهويه من الصحف والمجلات ومحادثة رفاق العمل فى أحاديث شتى بغية التسلية، وقضاء الوقت حتى يحين موعد الانصراف الرسمى من العمل.

وهذا الضرب من الناس ظالم لنفسه وإخوانه ومجتمعه ومعتد أثيم. إنه لا يراقب ربه فى عمله ولا يراقبه فى المال الذى يتقاضاه، وكيف له أن يسـتحل أخذ شـئ لم يؤد له مقابلا من العمل. إن الإسلام يرفض كل هذه الأنواع ويدعو إلى محاربة الكسل والإهمال

والنفعية. إن أصحاب الأنواع الثلاثة السابقة: استبدت بهم ثلاث آفات:

الآفة الأولى: هى الإهمال، والآفة الثانية: هى المصلحة الشخصية وطغيانها على المصلحة العامة، والآفة الثالثة: الكسل والخمول.. ونحن إذا ألقينا النظر على تعاليم الإسلام نجد أنه قد حارب تلك الآفات، وحذر منها أشد التحذير، ففيها ضياع للوقت دون فائدة، وقتل للزمان دون جدوى. فقد حارب الإسلام (الإهمال) وأمر بإتقان العمل والإخلاص فيه، وإحسانه وتجويده، وفى الحديث: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) وحارب الإسلام طغيان المصلحة الشخصية على المصلحة العامة كما حارب الكسل والخمول، ودعا إلى العمل الجاد، وإلى النشاط وحسن العمل لأن الله مطلع ورقيب وهو سبحانه القائل ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

□□□

(١) سورة التوبة ١٠٥.

الإنسان المسلم فى بوتقة الاختبارات

من أهم الملامح لشخصية المسلم الثبات فى العسر وفى اليسر، إن المسلم شاكر فى السراء صابر فى الضراء، يبرهن على صدق عقيدته بالإنفاق فى الحالين: يقول الله تعالى فى وصف المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾[1] إن شخصية المسلم لا تهتز بالعسر ولا تقنط بالضراء، كما أنها لا تضل ولا تطغى باليسر أو السراء وإنما هى فى الموقفين سواء، وهذا شأن المسلم الذى قويت عقيدته وآتت أكلها وثمارها، إنه شاكر فى السراء صابر فى الضراء قال ﷺ «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له».

إن للمسلم خطاه الثابتة التى يسير بها ومعه يقين يضىء له الطريق وثقة لمشاهدها العديدة حازمة حاسمة لا يشده بريقها ولا يخدعه زخرفها.

إن حياة المسلم متصلة الحلقات من الابتلاءات والاختبارات، فمنها ما يكون ابتلاء بالنعمة ومنها ما يكون بالنقمة وتلك سنة الله فى خلقه، والعزائم المخلصة ذات المعادن الأصيلة حين تنصهر فى بوتقة الابتلاء بالبأساء والضراء تخرج وهى أشد عزما وأقوى إرادة وأكثر بريقا ولمعانا وعندئذ يأتيها نصر الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[2].. وموقف السلف من محن الحياة وابتلائها موقف الحريص على عقيدته المؤمن بقضاء ربه، الواثق من الفرج والمثوبة: يقول أحدهم: ما أصبت فى دنياى بمصيبة إلا رأيت لله فيها ثلاث نعم، أنها لم تكن فى دينى وأنها لم تكن أكبر منها وأننى أرجو ثواب الله عليها.

أما شخصية الإنسان التى لم تتهذب بالإسلام ولم تصقل بمبادئه القويمة فهى فى تطلع

(١) سورة آل عمران ١٣٤.

(٢) سورة البقرة ٢١٤.

إلى فضــل الله ورجاء ملــح لنعمته إذا نزل الضر، فإذا رفعه الله، وأحاطت النعمة جوانب الحيــاة فإنه ينســى ما كان فيه ولا يقيم حــق الله فى نعمته، ولا يؤدى الشــكر الواجب عليه حيالها. إنه فى حال النعمة ينســى حق الله وحق العباد، لقد خيمت على شخصيته الأنانيــة، وملأت الأثرة أقطار نفســه . فلا ينظر للحيــاة إلا بمنظار المنفعة الخاصة، يدور معها حيث يدور، ويبحث عنها فى كل مكان لا يعنيه شــىء ســوى منفعته، فى إطارها الضيق يظل فى وضع لا يستقر.

إن الطبيعة البشــرية فى صراعها الرهيب وفى رغبتها الجامحة لمتطلبات حياتها تظل خطاها تلح فوق الدروب المتشابكة بغية الوصول إلى أملها وهدفها وتضع على مفترق الطرق أمنيات رطبة خضراء لو تحقق ما تصبو إليه النفس أو جاء ما يهف إليه الإنســان لملأ ببره كل المســالك فكان وصولا للرحم بارا بالمحتاجين ســباقا للبذل فى الملمات ســاعيا لقضاء مصالح الناس محبا ودودا لكل القلوب . لكنه عندما يتحقق رجاؤه ويستجاب دعاؤه وتسير حياته متدفقة بالنعمة والخير ينسى ما اعتزم عليه ولا يأبه بمن مد يده إليه، ومن هنا تتعالى نداءات الإسلام موجهة إلى شكر الله الذى أنعم ودافعة إلى النظر بعين الاعتبار إلى تلك النعم التى لا تحصى . وتتوالى تعاليم الإســلام فى إرســاء قيم الحق وصقل الشــخصية الإسلامية وتهذيبها وعلاجها من ذلك الضعف الروحى والتمزق النفسى. وذلك بالصبر والعمل الصالح والانطلاق من قاعدة العقيدة الصحيحة التى تشرق الحياة منها رخاء آمنة.

وإذا كان الصبر وعمل الصالحات من وســائل صقل النفس وتربية الشــخصية فإن هناك علاجا آخر لروحه ولقاء طيبا يتم فيه تخلص الإنسان من هلعه وجزعه، ومن جحده ومنعه ذلــك هــو لقاء الله تعالى فى الصــلاة التى تتكرر كل يوم مذكــرة وموجهة فى كل ركن من أركانها بأن الله أكبر من كل شــىء، وكذلك فى البذل والإنفاق، وفى التصديق بيوم الدين والخوف من الله والعفة ومراعاة الأمانة والقيام بالشهادة.

وكل هذه الأمور يلفت القرآن النظر والقلب إليها لتقويم الشــخصية وتنقيتها من الهلع والجزع والجحود . إن شــخصية المســلم الحقيقية تملى عليه أن يتعرف على ربه فى وقت

الرخاء كما يتعرف عليه فى وقت الشـــدة، ومن كان كذلك فهو صادق الإيمان يستحق تيسير الله له وتفريجه لهمومه كما قال الرسول ﷺ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة .. وفتح الله سبحانه أبواب رحمته ونادى عباده إليها وبين أنه قريب منهم يجيب دعاءهم ويحقق رجاءهم وعليهم أن يستجيبوا لما يحيهم ويقوموا بأصل الإيمان الحق.

❑❑❑

تهذيب الإسلام للنفس الإنسانية

من أهم الملامح الواضحة فى حياة المجتمع المسلم .. أنه يعتنق الحق ويسير على ضوئه ويعمل فى دائرته. دون أن يكون هناك أى تأثير خارجى عليه، لأنه يؤمن بأن جزاءه منوط بعمله فإحسانه لنفسه وإساءته لها.

وقد غرس الإسلام فى نفوس الأفراد والجماعات أصول الحق ليتبعوها ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾(١).

وأنار القرآن الكريم الطريق أمام المسلم، مبينا له أنه وحده الذى ينال مثوبة هدايته، وأنه وحده الذى ينال جزاء ضلالته فلا ينجى اهتداؤه غيره، ولا يردى ضلاله سواه وكل نفس وما حملت من وزرها، فلا تحمل وزر نفس أخرى فلكل استقلاله وجزاؤه على حدة. قال الله سبحانه: ﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾(٢).

وقد نعى القرآن على أولئك الذين وقعوا أسرى العادة والإلف تجافيهم عن الحق. وضرب مثلهم بمن ينادى على حيوان يسمع الصوت ولا يفهم له معنى فهم فى انهماكهم فى التقليد الأعمى ووقوعهم فريسة التبعية البلهاء كمثل الصم البكم. قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾(٣).

وهذا الصنف من الناس لم يعط نفسه استقلالها ولم يمنحها حريتها فى البحث عن الحق، وإنما حبسها بين أسوار التقاليد الموروثة، توثقها العادات البالية وتمتهن كرامتها وإنسانيتها وقد تابع الإسلام نفسية المسلم فى سلوكها بالتقويم والتهذيب لئلا تتأرجح بين

(١) سورة الإسراء (٧).
(٢) سورة الإسراء (١٥).
(٣) سورة البقرة (١٧٠، ١٧١).

مد الحياة وجزرها فتتدهور قواها المعنوية تابعة كل ناعق ومنادية كل إنسان، أنا معك محسنا كان أو ظالما، روى الإمام الترمذى بسنده عن حذيفه قال: قال رسول الله ﷺ، «لاتكونوا إمعة تقولون، إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا»(١).

فإذا كان الله تعالى قد أعد المسلم إعدادا حقا، وهيأه لأسباب الحق والفلاح، بما ألهمه من رؤية واضحة للخير حتى يتبعه، وللشر حتى ينأى عنه، فليس للمسلم أن يكون إمعه، ولم تعد له حجة فى تعطيل ما أودعه الله فى حسه ووجدانه.

فكيف به يقف على مفترق الطرق يميل مع رياح الحياة حيث تميل، لقد سوى الحق النفس وألهمهما فجورها وتقواها. قال تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾(٢) وفى استقلال النفس الإنسانية حماية لمقومات الحق والخير التى أودعها الله فى الإنسان. فلا يتأثر بالعوامل الخارجية و المؤثرات المحيطة به، فإذا كان قاضيا أو شاهدا أو مدرسا أو قائما بالإصلاح بين الناس أو مقوما لأعمال البعض أو نحو ذلك من مسالك الحياة التى يرتادها فإن عليه أن ينظر إلى الحق بغض النظر عن أى عامل آخر أو أى مؤثر خارجى. فإذا قام لحكم بين الناس أو القضاء فيهم أو طلب منه أداء شهادة بالحق أو فصل فى خصومة فعلية أن يتحرى جانب الحق والصواب فلا تؤثر عليه صله قرابة أو نسب أو غير ذلك، قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾(٣).

وكما دعا الإسلام إلى المحافظة على قول العدل دون تأثر بصلة القرابة أو ما يدعو إلى الانحياز فكذلك حذر من أن تكون الكراهية والبغضاء من دواعى الانحراف عن الحق والعد فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا

(١) رواه الترمذى.
(٢) سورة الشمس ٧ – ١٠.
(٣) سورة الأنعام ١٥٢.

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[1].

وإن السلوك الإسلامى يتنافى مع الظلم، فيقيم المسلم العدل ولو على نفسه أو أقرب الناس إليه. ويتنافى مع الباطل فيقول الحق ولو على نفسه، ويعدل مع العدو كما يعدل مع القريب والحبيب فهو لا تحكمة تبعية تهدم شخصيتة، ولا يجور على عقيدته الهوى ولا تتسرب المحاباة إلى داخله إنه يحيا بين الناس قواما بالقسط شاهدا لله ولو على نفسه أو والديه أو أقربائه. قال الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾[2].

ويصون الإسلام الأمة الإسلامية من التأثر بخصائص الغير وأفعاله التى لا تتفق مع روح الإسلام والتى تتنافى مع فضائله، وأما الاستبداد بالرأى أو التمادى فى الخطأ فليس فيه من قوة الشخصية واستقلالها أدنى علاقه، بل إن ذلك يتنافى معها تنافيا تاما . فإن الرجوع إلى الحق فضيلة. ولا يوصف من يرجع للحق بأنه فاقد الشخصية بل إنه قوى الشخصية فى ضبط النفس، وكبح جماحها والاتجاه بها صوب الحق فلا يتجمد عند الخطأ بل يفىء إلى الحق أينما كان.

وكما أن استقلال الشخصية لا يتنافى مع الرجوع للحق فإنه كذلك لا يتنافى مع التعاون ومشاركة الأمة الإسلاميه. فالمراد باستقلال الشخصية ألا يذوب سلوك الفرد فى سلوك آخر ولا تذوب الجماعة فى جماعة أخرى فلكل إنسان مقوماته وقدراته الخاصة، وحين يسلب هذه المقومات فلا تكون له حريته ورغبته المستقيمة المخلصة. فإنه يقوم حين يقوم بالعمل وهو مسوق إليه ومكره عليه، فلا يستشعر المتعة به ولا يتذوق الرغبة الدافعة إلى إتقانه. ومن ثم يفقد روح النشاط والحيوية، ولا يقبل على العمل بجد وفاعلية، بل يؤدى عمله وهو مكره ومتبرم.

---

(١) سورة المائدة (٨).

(٢) سورة النساء (١٣٥).

ولو ترك الإنسان بلا توجيه سديد وأطلق لنفسه العنان دون رعاية وضبط، ومن غير حدود فإن ذلك شر مستطير، لما يترتب على سلوكه بلا مقاييس ما يترتب من إطلاق نوازعه النفسية. فتنمو الأنانية والأثرة . ويتجاوز الحدود بلا رادع أو ضابط . ومن أجل هذا كله أرسى القرآن للشخصية الإسلامية معالم محددة لا تتعداها، بحيث يجد المسلم ثواب عمله الصالح، ويتحمل تبعه إساءته فقال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾[1].. هذا بالنسبة للفرد فشخصيتة محوطة بدائرة الحق والعمل الصالح.

وأما بالنسبة لعلاقته مع الجماعة الإسلامية وعلاقة الناس مع بعضهم فإن تلك العلاقات مع ما وفره الإسلام لها من الاحتفاظ بالمقومات بحيث لا تذوب فى الآخرين. فإنه لم يمنع الإنسان أو الجماعة من التعاون والمشاركة، بل أمر بذلك إذكاء لروح التعاون وإبقاء لوحدة الأمة وإثراء لها بالعمل المشترك والتضافر المثمر، وذلك كله يتم فى إطار البر والتقوى وبعيدا عن الاثم والعدوان كما قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[2]..

□□□

(١) سورة فصلت ٤٦.

(٢) سورة المائدة ٢.